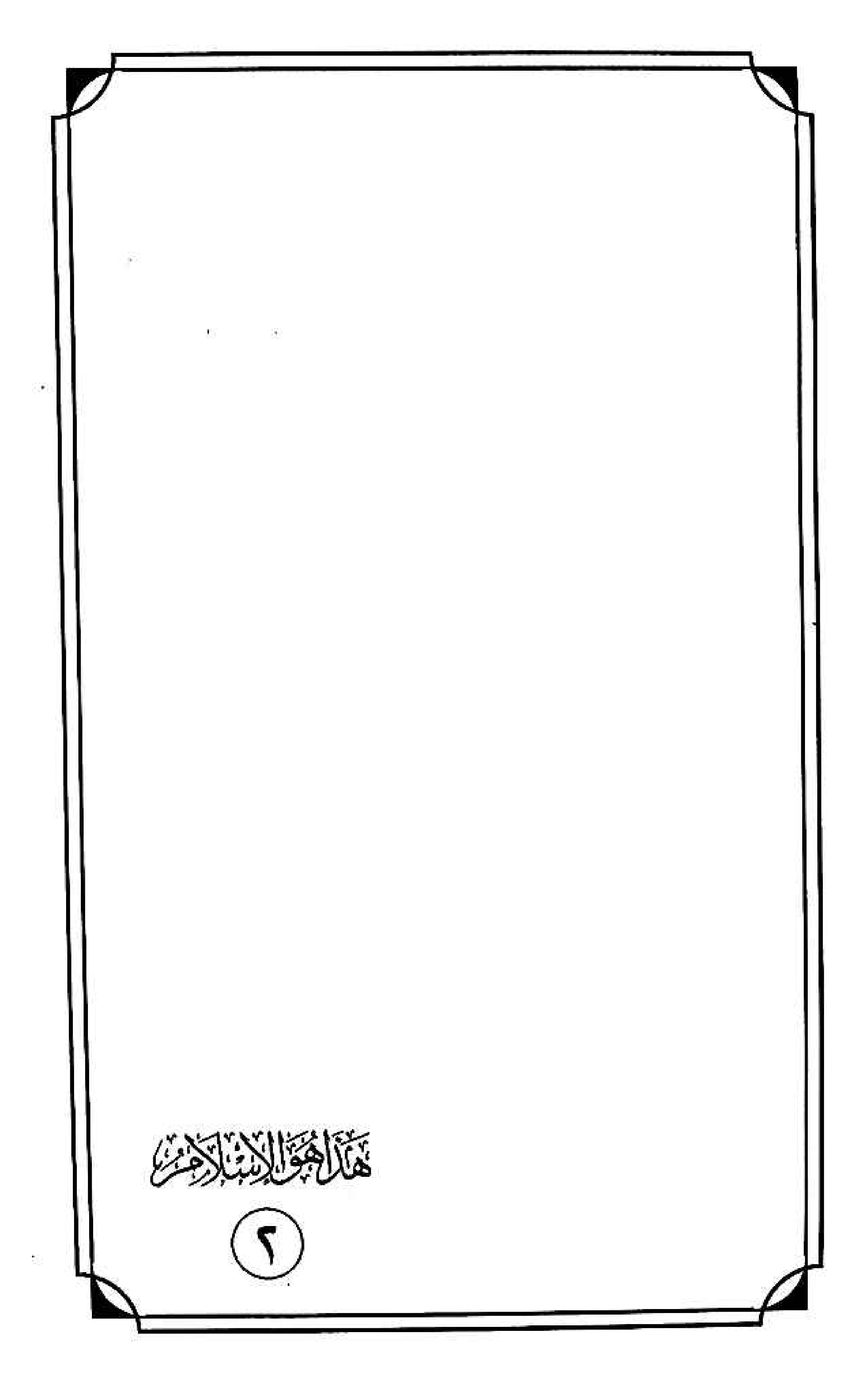
الدكتور مصطفى السباعي

هذا هو الإسلام

الجزء الثاني

دار ابن حزم




هذا هو الإسلام
٢

١٤٣٠هـ - ٢٠١٠م

ISBN 978-9953-81-884-9

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها



بيروت: تلفاكس: 701974 (9611+) - ص.ب: 14/6380
الرياض: هاتف: 4162527 (9661+) - ص.ب: 250641 الرمز 11391
دمشق: هاتف: 2230914 (96311+) - ص.ب: 7603

E.mail:msibaic@hotmail.com

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: 14/6366
هاتف وفاكس: 701974 - 300227 (009611)
بريد إلكتروني: ibnhazim@cyberia.net.lb

الدكتور مصطفى السباعي

هذا هو الإسلام

الجزء الثاني



دار ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم

أحداث غيرت مجرى التاريخ

المقدّمة

ونستمر في توثيق صلة الجيل الجديد بفكر الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله، الرجل الفذ الذي استطاع تأصيل مفاهيم الحوار وخطاب التسامح وأدب الاختلاف، وسعة الصدر، وفكر المعرفة الإنسانية المعتدلة.

وهذا الكتاب هو قراءة أبدعها د. مصطفى لأحداث ومنعطفات تاريخية مصيرية في حياة الشعوب العربية والإسلامية.

«إننا نجد أن الهجرة النبوية كما يراها المؤلف حدثاً جمع بين روعة الكفاح والفداء واللقاء وعظيم الأثر في تحويل مجرى التاريخ.

لا جرم أن عمر والصحابة بعيدي النظر، حين اعتبروا الهجرة بدء التاريخ الإسلامي.

لولا الهجرة لما كانت دمشق وبغداد، وقرطبة والزهراء، ولولا الهجرة لما كان خلود العرب في التاريخ، ولولا الهجرة لما استيقظ الغرب بعد سبات عميق».

في الذاكرة التاريخية للشعوب العربية والإسلامية أحداث جسام ومنعطفات حاسمة، لا بد من الوقوف عليها والتعرف

علىٰ صُنَّاعها، فقد نستطيع من خلال وعينا بآلياتها وحقيقتها أن نؤسس لفعل حضاري رشيد.

إن أمماً عدة تحتفل بمناسباتها وذكرياتها، وهي دون أدنىٰ شك لا تتساوىٰ مع ذكرياتنا وحقائقها.

* تُرى هل ألممنا بذكرياتنا؟

* وما هي تلك الذكريات الخالدة؟

* وبماذا توحي هذه الذكريات؟

تعالوا في سياحة ممتعة نتعرف علىٰ محطات تاريخية غيرت مجرىٰ حياة العرب بل والعالم بأسره.

الناشر

١/١٢/٢٠٠٢م



الذكرى الخالدة في التاريخ(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين ومن حمل من بعدهم رسالة الحق والخير والكرامة إلى يوم الدين.

ما أروع هذا الشهر في التاريخ وما أقل عناية الناس بهذا الشهر في عصرنا الحاضر، إن كل أمة تحتفل بيومها الخالد في التاريخ، فلفرنسا يوم الثورة فيها، ولأمريكا يوم التحرير والاستقلال فيها، ولروسيا يوم الثورة الشيوعية، ولهيئة الأمم يوم إعلان حقوق الإنسان تتنادى الدول الموقعة على هذا الميثاق كلها في يوم الذكرى لإعلان الميثاق لتبين ما لهذا اليوم من أثر خالد في تاريخ الدول المعاصرة له، أما نحن فلهذا

(*) نقدم فيما يلي لقرائنا الكرام الحلقة الأولى من الكلمة الرائعة التي ألقاها فضيلة الدكتور مصطفى السباعي يوم الاحتفال الكبير بذكرى بدر في دار المركز العام للإخوان المسلمين.

(١) نص الكلمة التي ألقاها الدكتور السباعي في الاحتفال الكبير بذكرى بدر (عن مجلة الشهاب السورية).

الشهر أعظم أثر في التاريخ إذ لم يكن شهر ذكرى واحدة بل شهر ذكريات ثلاث متلاحقة آخذ بعضها بحُجُز بعض، أولها ذكرى بدء الرسالة الإسلامية في التاريخ حين ابتدأ الوحي على محمد ﷺ في غار حراء تنزَّل عليه لأول مرة قول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾.

وما هي إلا سنوات قليلة حتى وقعت في هذا الشهر ذاته وفي اليوم ذاته في اليوم الذي بدأت فيه الرسالة الإسلامية وقعت فيه ذكرى أول معركة في الإسلام، ذكرى بدر.

وما هي إلا بضع سنوات أخرى حتى وقعت في الشهر ذاته وبعد يومين اثنين من ذكرى بدء الرسالة الإسلامية وذكرى بدر وقعت ذكرى فتح مكة آخر معركة حربية في جزيرة العرب انتهى فيها الصراع بين رسالة الإسلام وبين الوثنية القديمة، فالذكرى الأولى ذكرى بدء الإسلام والذكرى الثانية ذكرى بدء معارك الإسلام في داخل جزيرة العرب والذكرى الثالثة ذكرى انتهاء الصراع في داخل جزيرة العرب ليبدأ العرب من بعد ذلك رسالتهم التحريرية الكبرى إلى العالم كله «رسالة الإسلام».

إن من العجيب أن تقع هذه الذكريات الثلاث في شهر واحد وأن تقع أيضاً في يوم واحد أو يومين متقاربين. وإذا كان المسلمون يعلمون أن شهر رمضان شهر الصيام والعبادة

والخلاص الروحي والانعتاق النفسي من أوزار المادة وشهواتها فإن الإسلام يعرف في هذا الشهر ذكريات جمعت بينها عبادة روحية، فدل ذلك على أن الإسلام في بدئه تهذيب روحي وفي نهايته عهد روحي.

إن هذه الذكريات لو كانت لأمة من الأمم لأقامت الدنيا وأقعدتها، ولكننا نحن المسلمين اليوم الذين أنكرنا أنفسنا وأنكرنا تاريخنا وأنكرنا قيمة تراثنا وعقيدتنا تمر بنا هذه الذكريات فلا يقام لها وزن، بل إننا لنمر بهذه الذكريات في هذا الشهر فلا نهتم بها كما نهتم بالتافه من الأمور وبالشكليات من العبادة.

إني سأقتصر في هذه الكلمة على الذكرى الأولى وما تركته في التاريخ من أثر كبير.

هذه الرسالة الإسلامية التي جاءت الناس في عصر مضطرب مظلم انحرفت فيه الأديان عن رسالة الله وانغمست فيه الجماهير في أوزار الشهوة والرذيلة وتقطعت أوشاج الرحمة فيما بينهم، فأمة تقتل أمة ودولة تعلن الحرب على دولة، وإذا بالقوي يسلب الضعيف حقه وإذا برجل الدين يستهتر بعقل المواطن وكرامته وإرادته، وإذا بالملوك يسومون الشعب ألواناً من العذاب والاضطهاد، وإذا بالدنيا كلها هرج ومرج وفساد وضلال، في هذه الأوقات المظلمة تعلن رسالة الإسلام من أرض صحراء جرداء من جبال لا تنبت شجراً ولا تنبت زرعاً ولا تفوح فيها الرياحين، من هذه الجبال الجرداء والصخور

المتراكم بعضها فوق بعض تنبعث أول رسالة إلى الدنيا لتحقق هذه الرسالة للدنيا أسمى ما تتوق إليه الإنسانية. من هذه الجبال الجرداء تفوح في أنحاء الدنيا أزكى روائح الخير والحق والكرامة الإنسانية التي تتوق الشعوب إلى تنسُّمها... تعلن رسالة الإسلام في مكة في جبل النور في غار حراء على رجل واحد منقطع عن الناس لا حول له ولا طول، في شعب غافل، في أمة متشتتة متفرقة، في عالم كله قد انصرف عن الله وكله قد أقبل على الشيطان، فإذا بهذه الرسالة تسبق الدنيا بأربعة عشر قرناً إلى إعلان المبادىء التي تراها الدنيا اليوم مفخرة حضارتها ومفخرة تراثها.

إن رسالة الإسلام تسبق الإنسانية الحاضرة بأربعة عشر قرناً في إعلان أسمى ما وصلت إليه الإنسانية اليوم وأسمى ما تتوق إليه الإنسانية اليوم من مبادىء وحقوق.

إن هذه الرسالة قد انفردت من بين رسالات الأرض والسماء في عصر النبوة الذي نزل فيه القرآن على محمد ﷺ بثلاثة خصائص في ثلاثة ميادين:

١ ـ أما الميدان الأول: **فهو ميدان العقيدة**، فلقد سبقت الرسالة الإسلامية الديانات التي كانت سائدة يومئذ وأفكار الإنسانية التائهة الحائرة من فلاسفة وعظماء وعلماء ومصلحين ووعاظ... سبقت إلى إعلان مبدأ الوحدانية الخالصة لله جل شأنه... إلى إعلان ألوهية الله الكبير العظيم ألوهية كاملة تامة

متصرفة كامل التصرف في شؤون الدنيا والكون من أرض وسماء ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

ألوهية لا يشترك معها أناس مهما قويت عضلاتهم أو ارتفعت مكانتهم أو اشتد سلطانهم في المجتمع. ألوهية يعلنها الإسلام تخضع لها الرؤوس كبيرها وصغيرها، تذل لها الجباه عظيمها وصغيرها، ألوهية بيدها النفع والضرر، بيدها الموت والحياة بيدها القطع والوصل: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٦﴾.

وبذلك حطم الإسلام أوثاناً كانت الإنسانية عاكفة على عبادتها من أحجار كانوا ينحتونها بأيديهم إلى ملوك كانوا يطأطئون لهم الرؤوس إلى رجال دين كانوا يُسلِمون لهم القياد إلى أشراف كانوا يسخرون لمآربهم وأهوائهم كما تسخر الأنعام... حطم الإسلام هذه الأصنام كلها فاعتبرها آلهة زائفة باطلة يجب أن يكفر بها، وألا تتجه أنظار الناس إلا إلى الله وحده، خالق الحياة والموت خالق الدنيا رب العالمين ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، وبذلك هوت أصنام كانت تذل البشرية، وبذلك هوت عروش كانت تسوم البشرية ألواناً من العذاب، وبذلك انزاح من طريق البشرية أصنام من رجال الدين كانوا يأخذون لأنفسهم صفة الله

فيقطعون ويمنعون، ويحرمون الجنة عمن يشاؤون، ويفتحون النار لمن يشاؤون: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أصنام هي أهواء الناس وشهواتهم كانت تسخّر الناس في الحياة فلا يندفعون إلى الحق بل إلى المصلحة الذاتية التي كانت توردهم موارد الهوى ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾.

أما الوحدانية التي سبق الإسلام إلى إعلانها قبل أربعة عشر قرناً قبل أن تتنبه الإنسانية إلى أن الملوك الطغاة أصنام يجب أن تحطم، قبل أن تتنبه الإنسانية إلى أن رجال الدين المضلين أصنام يجب أن تزال من الطريق، قبل أن تتنبه الإنسانية إلى أن الأغنياء والمترفين الظالمين أصنام يجب أن تزول من الطريق، قبل أن تتنبه الإنسانية إلى أن الدول القوية المستعمرة للشعوب الضعيفة يجب أن تكافح وتحارب، حتى لا يكون في الأمة كلمة إلا كلمتها ولا إرادة إلا إرادتها ولا سلطان إلا سلطان الشعب، لقد حطم الإسلام هذه الأصنام قبل أن تتنبه الإنسانية إلى وجوب تحطيمها بأربعة عشر قرناً.

وهذه الوحدانية التي أعلنها الإسلام صافية كريمة قوية عزيزة متفردة بالجاه والسلطان لا يتوصل إليها بالأباطيل ولا بالجهالة إنما يتوصل إليها بالعقل المجرد من الهوى والعلم الخالص من الزيغ والضلال، عقل ينظر في آفاق السماء والأرض فيهتدي إلى الله بآثاره، يهتدي إلى الله بسلطانه.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

يهتدي إلى الله بالعلم الذي لا يقوم على الخرافات وعلى التخمين إنما هو قائم على التجرد من الهوى والسماع البريء من الكذب أو التجربة الملموسة المحسوسة الخالية من الوهم: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ عقيدة قوامها العقل وسندها العلم. ومن ذلك لم يكن سبيل إلى دخول هذه العقيدة إلى قلوب الأمة إكراهاً بالسيف أو ضرباً بالسَّوط، كلا كلا إنما السبيل إلى سيطرة هذه العقيدة على قلوب الناس، عقل يقتنع وعلم يصدع وخبر صادق ينير الطريق بين يدي المؤمن. هذه هي العقيدة التي لا إكراه فيها: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾، ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾، وبذلك أعلن الإسلام قبل أربعة عشر قرناً من إعلان ميثاق حقوق الإنسان لحرية الفكر وحرية العقيدة وحرية العبادة أعلن الإسلام يومئذ أن الدين يجب أن يكون حراً وأن الدين يجب أن يدخل إلى قلوب الناس عن طريق العقل لا عن طريق السوط ولا السجن ولا الدم المراق، كلا إنها هي العقيدة التي تدخل إلى قلوب آمنة مطمئنة سعيدة: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

٢ ـ **أما الميدان الثاني** الذي سبق الإسلام إلى إعلانه قبل أن تستفيق البشرية من غفوتها، فهو **ميدان الحياة الاجتماعية الكريمة**:

لقد أعلن الإسلام أن الناس جميعاً أمام الحق سواء،

كانت هذه أولى مبادىء الرسالة الإسلامية في المجتمع الداخلي:

الناس أمام الحق سواء لا فرق بين كبيرهم وصغيرهم، ولا عالمهم وجاهلهم، ولا بين غنيهم وفقيرهم أمام الحق وأمام القانون، الناس سواسية كأسنان المشط: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾، فهذا أول مقياس في الدنيا يوضع للمفاضلة بين المواطنين تمحى فيه فوارق اللغة، وفوارق الجنس، وفوارق العرق، وفوارق الدين، وفوارق الجاه، وفوارق النسب وفوارق الحسب، كل ذلك يمحوه الإسلام ليعلن مقياساً واحداً فيه يتفاضل الناس وفيه يتفاوتون: التقوى. ولأول مرة يضع الإسلام ميزاناً صادقاً للتقوى ميزاناً اجتماعياً لا يخطىء أبداً هو الذي يطمئن إليه العقل والذي ترتضيه الكرامة الإنسانية، فلقد كانت التقوى قبل الإسلام رُكيعات يركعها العابد في صومعته أو على رأس الجبال، ولقد كانت التقوى قبل الإسلام زهداً يقطع صاحبه عن الحياة، ولقد كانت التقوى قبل الإسلام عزوبة تحرم على صاحبها أن يأوي الرجل إلى امرأة تسكن نفسه إليها وتسكن نفسها إليه، لقد كانت هذه هي التقوى قبل الإسلام، انقطاعاً عن الحياة وتجرداً من المادة وتخلياً عن اللذائذ التي خلقها الله للإنسان، ومكافحة للغرائز الفطرية في الإنسان الكريم. كانت هذه هي مقاييس التقوى، فإذا بالإسلام يضع مقاييس جديدة للتقوى تقوم كلها على مبدأ السمو الروحي

والاستقامة الأخلاقية والنفع العام للناس: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾.

فتفسير قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ نجده في هذه الآية ﴿أَتْقَىٰكُمْ﴾ أكثركم إيماناً بالله واليوم الآخر، أتقاكم: أكثركم براً بالطبقات المتخلفة في المجتمع، أتقاكم: أكثركم صبراً عند الشدائد، أتقاكم: أكثركم نفعاً للناس وحسن خلق مع الناس. هذا هو معنى قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

ثم إن الناس متساوون في الكرامة: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ كرمنا بني آدم بعنوان الآدمية، بوصف أنهم بنو آدم لا بوصف من لغة ولا بوصف من جنس ولا بوصف من فارق اجتماعي، ولقد كرمنا بني آدم كرامة ثابتة لكل مواطن بوصف كونه إنساناً يعيش على ظهر الأرض، هذه الكرامة يجب أن تتحقق للمواطنين جميعاً فيجب أن ينال كل مواطن حقه من العيش، وحقه من السكن، وحقه من الطعام واللباس، وحقه من العلم، وحقه من الكرامة، وحقه من الأمن والسعادة...

هذا هو أول نداء توجهت به السماء إلى ضمائر أبناء الإنسانية على لسان النبي الأمي الكريم محمد ﷺ قبل أن تتنبه الإنسانية إلى حق المواطنين جميعاً في الكرامة الاجتماعية في حق التكافل الاجتماعي بين الناس.

٣ ـ أما **الميدان الثالث** الذي سبق الإسلام إلى إعلانه

فهو: **ميدان التعاون مع شعوب العالم،** فما الناس إلا أبناء أب واحد وأم واحدة خلقهم الله ليتعارفوا ويتعاونوا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، والعلائق بين الناس جميعاً وبين الدول كلها يجب أن تكون قائمة على أساس السلم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾، وإنما تشرع الحرب لرد العدوان أو لحفظ الكرامة: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾.

وكما يكون العدوان على أرض الوطن عدواناً ينهض له الناس بأرواحهم وأنفسهم، يكون العدوان على عقيدة الشعب عدواناً يجب أن تشرع في سبيل الدفاع عنه الحرب الكريمة المسالمة التي لا تبغي ولا تعتدي: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

حرب يجب أن تشرع لغرضين اثنين تحقيق الأمن والكرامة في داخل المجتمع ورد العدوان عن الدولة والشعب وعقيدة الدولة والشعب من خارج المجتمع: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾.

في هذا النطاق تقام العلائق بين الدول، فإذا سالمت الدولة أمتنا كنا لها سلماً: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى

ٱللَّهِۚ﴾، فإذا أبت إلا أن تعلن علينا الحرب فلنعلنها حرباً دفاعية لا نتجاوز فيها حدود الدفاع نقاتل من قاتلنا ونحارب من حاربنا: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾، فإذا أعلنت الحرب فلا ينس الجيش المحارب أخلاق الملائكة في رحمتها وفي إنسانيتها وفي سلمها. في الحرب يعلن الإسلام أخلاق السلم في قلب المعركة يضبط الإسلام أعصاب المؤمنين المحاربين فلا يثورون ولا يندفعون إلى الانتقام فيقتلون من لم يقاتل ويذبحون من لم يحارب ويدوسون بأقدامهم من لا يستطيع رد العدوان والأذى عن نفسه: «قاتلوا في سبيل الله ولا تقتلوا شيخاً ولا طفلاً ولا امرأة ولا راهباً في صومعته، ولا تحرقوا نخلاً، ولا تعقروا دابة، ولا تذبحوا حيواناً إلا لمأكلة، وستمرون على أقوام قد فرغوا أنفسهم للعبادة فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له».

في هذه الحرب التي يعلنها الإسلام حرب يلمس فيها الناس أخلاق المسالمين. إن الناس في أيام السلم قلَّ أن تضبط أعصابهم أثناء الخصومة، فمن شاتم إنساناً اندفع المشتوم إلى رد الشتيمة بأكثر من صدور الشتيمة التي شتم بها.

وقلَّ أن تستطيع أن تضبط إنساناً قد دخل في خصومة ليقف في حدود العدالة وفي حدود رد العدوان، ولكن الإسلام يفرض على المحاربين الذين تفرض فيهم رؤية الدم أن يكونوا آلة للخراب وآلة للدمار تفرض عليهم رؤية السيف مشهراً مصلتاً يقطر دماً أن يكونوا في فورة الانتقام يقتلون ويخربون ويهدمون

ويأسرون ويعذبون ويضطهدون، ولكن الإسلام يفرض عليهم في هذه الحالة والدماء تتقاطر من سيوفهم وأشلاء القتلى تتناثر هنا وهناك والغبار الثائر يملأ العيون، والسيوف فوق الرؤوس والجثث في الأرض مطروحة متناثرة هنا وهناك، يفرض الإسلام على المؤمنين والمحاربين أن يضبطوا أعصابهم فيقول لهم قفوا لا تندفعوا لا تثأروا لا تعتدوا فما دخلتم الحرب إلا مدافعين. حذار حذار أن تنقلبوا من المدافعين عن الحق إلى المهاجمين في حق، حذار أن تندفعوا من المدافعين عن كرامة إلى الدائسين للكرامة، حذار أن تنقلبوا من مدافعين عن حق شعب إلى المضطهدين لحرية شعب وكرامة شعب.

هذا أول إعلان إنساني لمبادىء الحرب في الدنيا لم تعرفه الدنيا قبل الإسلام ولم تعرفه بعد الإسلام.

أيها السادة هذه سطور رئيسية لمبادىء رسالة الإسلام وليست العبرة في أنها مبادىء تروقنا اليوم أو أنها تلتقي مع كثير مما تؤمن به الإنسانية في عصرنا الحاضر، ولكن العبرة في ثلاثة نواح هي التي ينبغي أن تملأ قلب المسلم عزة وتدعوه إلى الحفاظ على هذه الرسالة الإسلامية الخالدة.

أما الناحية الأولى فهي أن هذه المبادىء التي تروق الإنسانية اليوم ويقوم عليها كيان الدولة الحديثة ويعلنها ميثاق حقوق الإنسان قد سبق الإسلام إلى إعلانها قبل أربعة عشر قرناً فكان ذلك دليلاً على أن الإسلام رسالة من السماء إلى الأرض.

أما الناحية الثانية فهي أن هذه المبادىء التي سبق الإسلام إلى إعلانها قبل أن تفهمها الدنيا بأربعة عشر قرناً، لا تزال أرقى وأسمى وأكرم إنسانية مما تنادي به المذاهب الاجتماعية والأعراف الدولية اليوم، فنظام الإسلام في السلم والحرب ونظامه في الحكم ونظامه في التكافل الاجتماعي ونظامه في الأسرة والتربية النفسية كل ذلك وأمثاله لا يزال حتى الآن أرفع وأعلى وأنفع للناس وأصدق في إسعادهم من النظم التي تماثلها في الأمم المتحضرة.

وأن الإسلام من صنع الله الحكيم لم يكن نابعاً من نفس محمد ﷺ الأمي اليتيم وأن الذي وضع شريعة الإسلام لم يكن إنساناً فيلسوفاً ممتد البصر إلى ما وراء مائة سنة أو مائتي سنة أو ألف سنة فحسب، إنما الذي وضعها الله الذي خلق الدنيا ويعلم ما تنطوي عليه من شر وما ستكون عليه بعد مئات الملايين من السنين، الله الذي علم الإنسان وخلقه وعلم طبائع الناس وركزها فيه، هو هو الذي أعلن شرعة الإسلام على يد محمد ﷺ ليكون لساناً مبيناً ينطلق من صحراء مكة قبل أن تستفيق الإنسانية من غفلتها بأربعة عشر قرناً، هذه الناحية الأولى من نواحي العبرة.

أما الناحية الثالثة فهي أن هذه المبادىء التي أعلنتها رسالة الإسلام طبقها صاحبها بيده وطبقها أصحابها الذين أعلنوها ولم تكن كالمبادىء التي تعلنها الأمم اليوم، والتي أعلنتها الأمم في ثورتها في القرنين الماضيين، لم تكن مبادىء

نظرية ما تكاد تستوي الأمة على قدميها ويعود لها السلطان والسيطرة حتى تنسى مبادئها في حكم الشعوب. إن محمداً ﷺ الذي أعلن في مكة قبل أن يفتحها قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ هو هو الذي أعلن هذه الآية ذاتها بعد فتح مكة حين وقف على باب الكعبة والقرشيون بكبريائهم وعظمائهم وقادتهم مطأطؤو الرؤوس تحت قدميه ينتظرون حكم الموت يخرج من شفتيه، هو هو الذي أعلن مبادئه يوم كان ضعيفاً مطارداً لا أنصار له ولا أعوان، هو هو الذي حقق هذه المبادىء في قريش التي اضطهدته وعذبته وشرَّدته وشرَّدت رجاله وأصحابه وناصبته العداء، وما رمت السيف إلا بعد أن يئست من النصر، ولا أخلدت إلى السلم إلا بعد أن انهزمت في الحرب. إن محمداً ﷺ المنتصر هو الذي أعلن مبادئه يوم كان وحيداً، فلذا قال فيما قال من خطبته يوم فتح مكة: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج** (وهما أمران اجتماعيان فيهما نفع للناس) **يا معشر قريش** (يقول هذا صاحب الثورة الذي انتصر) **يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب، ثم تلا رسول الله** ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾، ثـم

قال: **يا معشر قريش ويا أهل مكة ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء**»، طبقها رسول الله بنفسه يوم انتصر، وطبقها أول خليفة بنفسه يوم انتصر، حين قال: «يا أيها الناس إني وليت عليكم ولست بخيركم، القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له الحق. أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإذا عصيته فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. وأعلنها عمر ثاني خليفة للرسول يوم انتصرت جيوشه في مصر، وأذل ولد الفاتح عمرو بن العاص ولداً مغلوباً من سكان مصر الأقباط فضربه بالسوط على رأسه، أعلن عمر مبادىء ثورة محمد ﷺ حين قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ حين أعلن كرامة الناس: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ فلم ير عمر الأمين على مبادىء الثورة الإسلامية الأولى لم ير عمر أن من الكرامة الإنسانية أن يضرب صغير بغير حق لأن الولد الضارب قد أدل عليه بكبرياء أبيه وبانتصار أبيه، وبسلطان أبيه، فإذا بعمر يطبق مبادىء الثورة ويري الدنيا كلها قديمها وحديثها، إن ثورة تتنكر لمبادئها يوم تقوم ثورة لا بد من أن تهدم فوق رؤوس أصحابها بعد عشرات من السنين، وإن ثورة تعلن الرحمة في غاياتها ثم تصب العذاب في أعمال قادتها ورجالها ثورة لن تكون إلا ثورة الشيطان المتلبس بالرهبان، وإلا ثورة الشر اللابس لبوس الخير ولبوس البر والتقوى، فإذا بعمر يأبى إلا أن ينتصف للولد المظلوم من الولد الظالم،

ويقول عمر قبل أن تقولها هيئة الأمم، هذه الكلمات بنصها وحروفها يقول عمر: «يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً»، قالها عمر قبل أن يعلن ميثاق حقوق الإنسان في أول ما يعلن هذه الكلمات، الناس يولدون أحراراً متساوين في الحقوق والواجبات، هذه ناحية ثانية جديرة بالاعتبار، فما رأينا في عهدنا ثورة انتصرت ثم استمرت وفيَّة لمبادئها إلا ثورة الإسلام، ولا علمنا رسالة طبقت بحذافيرها على العدو والصديق، على القريب والبعيد، على المواطن وغير المواطن كما طبقت رسالة الإسلام يوم انتصرت ويوم حكمت ويوم أصبحت دولة. لقد أعلن الإسلام منذ شرع القتال قبل أن ينتصر المؤمنون، قبل أن تعلن نتائج المعارك الحربية بين المسلمين وغيرهم، قبل أن تكون كلمة الإسلام هي العليا في أرض جزيرة العرب، ثم هي العليا في الأقطار الأخرى، لقد أعلن الإسلام مبادىء الدولة الإسلامية حين انتصر فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾، فلما انتصرت دولة الإسلام أقامت الصلاة وآتت الزكاة وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر وكانت العاقبة لله، وكانت كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، وكان حقاً علينا نصر المؤمنين.

في مثل هذا الموقف الذي يتملك الحماس فيه من يتكلم عن ذكرى قلبت وجه التاريخ لا أريد أن أسترسل في هذا الجو الحماسي ولكني أريد أن أخاطب عقولكم وقلوبكم أنتم يا

شباب هذه الأمة، أنتم أيتها الصفوة الممتازة من شباب هذه المدينة أنتم يا أبناء دمشق الخالدة من مدينتكم انطلقت جيوش الإسلام إلى أنحاء الدنيا تترنم بالقرآن، من جيوشكم انطلقت كتائب الإسلام إلى مشارق الدنيا ومغاربها تحدو الركب بحديث رسول الله ﷺ، من مدينتكم هذه يا شباب دمشق انطلقت كتائب الإسلام إلى أنحاء الدنيا تركز أعلام المجد وتقيم دعائم الخير وتمحو آثار الشر وكانت لكم بها دولة وكان لكم بها عز وكانت لكم بها أيام، ثم أغفوا وغفا الزمان فإذا بهذه الكتائب تغدو قوافل في ركب العبيد وإذا بهذه الرايات تغدو ثياباً مرقعة نبدو بها زهاداً وعبَّاداً ودراويش يفرون من الدنيا، إلى حيث يطردهم أهل الدنيا، وإذا بهذه المبادىء نفقدها في أنفسنا ونجدها عند غيرنا فتحلو لنا لأنها عند غيرنا، فإذا قيل لنا هذه عندنا أصبحت مُرَّة المذاق على أفواهنا..

حلوة إن كانت بيد الغريب مُرَّة إن أتتنا على يد محمد ﷺ.

أَمِنَ الحق أن يكون موقف الخلف من تراث السلف هذا الموقف العاق؟ أَمِنَ الخير.. أمن الإنسانية.. أمن البر بتراث الجدود أن نجفوه ونعقه وننكره ونتبرأ منه ونتخلى عنه ونعين أعداءه عليه؟ هذا ما يفعله المسلمون اليوم عامدين أو جاهلين.

إن بعضاً من أبناء المسلمين يعلنون حرباً سافرة على الإسلام يتلقفون مبادىء الكرامة لا من يد محمد ولا من نور مكة ولا من رسالة يثرب ولا من هدي القرآن، يتلقفون مبادىء الحياة كما يزعمون من يد أناس فقدوا أسمى مبادىء الحياة في

أنفسهم فماتت معاني الخير في نفوسهم قبل أن يموتوا وماتت واندرست معالم الحق في ضمائرهم قبل أن تدرس آثارهم، إن هذه المبادىء التي يدعو إليها الدعاة اليوم في أوطاننا هذه المبادىء التي يتلقفها الناس عن دعاة شرقيين وغربيين مواطنين وغير مواطنين هواة المبادىء التي تجفو مبادئنا التي كنا بها أمة ولا نزال بها أمة هي التي دمغتنا بالعقوق دمغاً لا فكاك لنا من إساره إلا أن نحطم القيد.

يا شباب لقد كنت منذ أيام في عمان ولشدة ما آلمني والله أن أسمع رجلاً في عمان لا من أهل عمان وليس عربياً ولكنه مسلم يقول لي: أليس عاراً على دمشق البلد المسلم بلد الوليد وعبد الملك، بلد كتائب الإسلام التي فتحت الدنيا، أليس عاراً على دمشق أن تنشر فيها دعوات فتشتد وتقوى وتشهر السلاح، أليس من العار على دمشق أن تستأسد فيها كل دعوة ميتة وتموت فيها الدعوة الحية الخالدة إلى يوم الدين؟ خجلت في نفسي ولكني تذكرت إخواني فصحوت ورفعت رأسي وقلت لذاك القائل: طب نفساً فما تنكرت دمشق لدعوة الإسلام ولن تتنكر لها، ولن تكون دمشق إلا تربة صالحة للإسلام الحي الكريم، وإذا غفت دمشق فقد يغفو اليقظ، وإذا كبت دمشق فقد يكبو الجواد، وإذا زلت دمشق فقد يزل العالم، وما اجتماعنا في هذه الليلة أيها السادة إلا فرصة لأجوس فيها، أجوس وأؤكد هذه الكلمة، لأجوس فيها خلال ضمائركم لا مفسداً ولا عابثاً ولا مخرباً ولكن موقظاً باعثاً مستحثاً مستحلفاً بالله الذي آمنتم به،

ألم يأن لكم يا شباب الإسلام أن ترفعوا رأسكم لتروا أين أنتم، ألم يأن لكم أن تقطعوا سلسلتكم في قافلة العبيد وتضعوا أيديكم مع قافلة الأحرار التي أولها محمد ﷺ وآخرها مسلم يعيش على ظهر الأرض حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

يا شباب الإسلام في هذه المدينة وفي هذه الديار إن هيئة الأمم تستحثها الدول كلها على أن تجعل من يوم إعلان الميثاق لحقوق الإنسان يوم عيد عالمي وأنتم هنا وقد سمعتم طرفاً من ميثاق الإنسان كما أعلن محمد ﷺ، كما أعلن الناس قبل أربعة عشر قرناً، أستحلفكم بحرمة الحق في نفوسكم أليس ميثاق حقوق الإنسان أعلنه محمد ﷺ في غفلة الدنيا وكبوتها قبل أربعة عشر قرناً أجدر بأن تحتفل به الدنيا من ميثاق حقوق الإنسان الذي أعلنته دول اليوم هي هي التي تدوس هذه الحقوق، هي التي تضطهد حقوق الإنسان في كل مكان. أيها الشباب نحن في ليلة الذكرى جديرون بأن نجدد العهد في الذكرى عهداً يشهده الله، عهداً تشهده السماء، عهداً يشهده التاريخ من بعد عهد تقول فيه الأجيال. هذه الليلة جديرة بأن لا تنتهي يا شباب حتى نجدد العهد لا بإحياء الذكرى أذكاراً وصلوات باهتة معينة وتلاوات خافتة في النفس لا تدل على قوة ولا على جرأة، عهداً يشهد الله وملائكته آثاره في أعمالنا وفي عقولنا وفي ضمائرنا وفي حياتنا، عهداً روحياً كريماً عهداً بدرياً نجدد به إيمان أهل بدر وصلابة أهل بدر وتضحية أهل بدر، عهداً يقول التاريخ لقد قال سعد في أول بدء الثورة الإسلامية

لرسول الله ﷺ في أول معركة من معارك الإسلام الكبرى: والله يا رسول الله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكننا نقول لك اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. هل تشهد السماء في هذه الليلة عهداً كعهد سعد يا شباب الإسلام في هذه الديار.

هل يشهد التاريخ أن مئات في مكان محدود في شارع من شوارع دمشق في ليلة من ليالي الزمن الخالدة في التاريخ، هل يشهد التاريخ أن مئات جددوا العهد في ليلة ذكرى بدء الرسالة الإسلامية على أن يحيوا مبادىء الرسالة الإسلامية وفي ليلة ذكرى بدر على أن يكونوا كأهل بدر، وفي ليلة ذكرى فتح مكة على أن يكونوا كما كان المنتصرون يوم مكة رسل خير ودعاة حق وحملة هداية إلى الدنيا وإلى الإنسانية كلها. هل يشهد التاريخ في هذه الليلة في هذه الساعة في هذا المكان في هذا الحي في هذه المدينة من دنيا الإسلام هل يشهد التاريخ عهداً تسجله ملائكة السماء فيستبشر التاريخ بنهضة كبرى في تاريخنا كما استبشر التاريخ يوم نزل الوحي على قلب محمد وكما استبشر التاريخ يوم انتصر المسلمون في بدر وكما استبشر التاريخ يوم أعلن محمد ﷺ مبادىء ثورته على باب مكة فقال: الناس خلقوا من آدم وآدم من تراب.

هل يشهد التاريخ تمجيداً لهذا العهد في هذه الليلة. يا شباب الإسلام هل أنتم مستعدون لأن تعطوا الله عهداً في هذه الليلة عهداً تشهده السماء وتسجله الملائكة ويخطه التاريخ

بأحرف من نور، يا شباب الإسلام إليكم وحدكم أوجِّه النداء وإليكم وحدكم أطلب هذا العهد، لا أستكثر الجماهير، فما الجماهير إلا وراء الصفوة المؤمنة المتراصة إن التقت على الخير سيَّرت الجماهير وراءها، لا أستكثر بالجاه والنفوذ، فما الجاه إلا جاه الله ولا السلطان إلا سلطان الله ولا العظمة إلا عظمة الله، ولا أستكثر بالمال فالمال أولاً مال الله، والمال ظل زائل وعارية مستردة، وإنما أستكثر بالقلوب المؤمنة، وحسبي في هذه الليلة وحسبي من هذا العهد هذه القلوب المؤمنة، هذه المئات من القلوب المؤمنة التي تعاهد الله عن صدق وتعقد معه العهد الروحي عقداً خالداً تقدمه بين يديها عربوناً لإيمانها وجوازاً في طريقها إلى الجنة.

أيها الشباب:

إن آمنتم بذكرى بدء الرسالة الإسلامية وبذكرى بدر وفتح مكة وإنها من أجلِّ الذكريات في التاريخ، فقولوا معي هذا العهد بقلوبكم لا بألسنتكم فحسب، بل بقلوبكم وراء ألسنتكم، بنفوس مؤمنة، بنفوس قوية، بنفوس وهبت لله أرواحها وحياتها، بنفوس اطَّرحت الحياة الذليلة المهينة لتعيش ولو تحت ظلال السيوف عيشة كريمة عزيزة أولها طريق محفوفة بالفناء وآخرها عطر ورياحين وأنهار من عسل ولبن مصفى وحور عين لم يطمثهنَّ إنس ولا جان، وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، قولوا معي أيها الإخوة بقلوب مؤمنة من أراد منكم أن يعاهد الله هذا العهد، من شهد الله على قلبه

في هذه الساعة أنه بين يديه يعاهده عهد الصدق والإيمان عهداً لا ينكثه أبداً، قولوا معي يا شباب الإسلام بقلوب مؤمنة بصرخات تدوي في الأرض لا بقوة الحناجر ولكن بقوة الحق الذي تنطلق من هذه الحناجر قولوا معي:

(بسم الله الرحمن الرحيم، نعاهد الله ونعاهد رسوله ونُشهِد ملائكته أننا للإسلام جنود أوفياء ننشر مبادئه في الناس، ونطَبق مبادئه على أنفسنا، وننشر رسالته في الدنيا رسالة تحرير للشعوب وتحرير للعقول وتحرير للقلوب حتى لا يكون في الأرض سلطان لطاغية ولا مكان لجبار ولا قوة لمستعمر، نعاهد الله عهد المؤمنين الصادقين أن نكون لهذه الرسالة أوفياء نضحي في سبيلها بالمال والجاه والنفس والروح والدم ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً حتى نلحق بقافلة الشهداء الأبرار من أهل بدر والقادسية واليرموك وحطين.

نعاهد الله على هذا ونسأله الوفاء به والثبات عليه وهو حسبنا، نعم المولى ونعم الوكيل، والله أكبر ولله الحمد.

❖ ❖ ❖



ذكرى الإسراء والمعراج في تاريخنا القديم والحديث[1]

من أعظم الذكريات التاريخية مكانة في تاريخ الإسلام وأكثرها احتفاء من قبل المسلمين، هي هذه الذكرى التي نحييها الليلة، ذكرى الإسراء والمعراج، ففي هذه الليلة يجتمع المسلمون في شتى أنحاء العالم في بيوت الله، يتلون تفاصيل هذا الحادث المعجز الذي وقع لرسولهم ﷺ قبل أربعة عشر قرناً، ويتأملون ما فيه من العبر والعظات، ويتذكرون عناية الله برسولهم الكريم، ويعاهدون الله على أن يتجردوا من كل خُلُق ذميم وأن يتصفوا بكل سجية حميدة، ويجددون بيعتهم لله ووفاءهم لرسوله وثباتهم على دينه.

ولا يعنينا في هذا الحديث أن نبرهن على وقوع الإسراء تاريخياً وإمكانه عقلياً، فالناس فريقان: فريق لا يؤمن بالله ولا بما وراء الطبيعة، وهؤلاء لا ينفع الكلام معهم في الإسراء والمعراج قبل أن يقتنعوا معنا بوجود الله ورسالات الأنبياء،

(*) طلبت دار الإذاعة السورية من الدكتور مصطفى السباعي حديثاً بمناسبة ذكرى الإسراء والمعراج، فكتب هذا الحديث الذي ألقي من دار الإذاعة ليلة الإسراء.

(١) عن جريدة الشهاب السورية، العدد (٩٠)، السنة الثانية.

وفريق يؤمن بالله والرسالات، وهؤلاء إن كانوا من غير المسلمين فقد حفلت كتبهم الدينية بمعجزات كثيرة للأنبياء والرسل، فلا يصح لهم إنكار الإسراء والمعراج وهم يؤمنون بما هو أكثر بعداً عن تصور العقل من معجزات وخوارق للطبيعة، وإن كانوا من المسلمين فحسبهم أن القرآن سجل هذه الحادثة بوضوح في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾، كما أشار إلى حادثة المعراج في الآيات التي تبتدىء بقوله: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ إلى آخر الآيات.

إنما الذي يعنينا من هذا الحديث أن نستفيد من هذه الذكرى في واقعنا الحاضر، وأن نتذكر ما يرتبط بها من أحداث وقعت في تاريخنا القديم والحديث.

كان العرب عند مبعث رسول الله ﷺ منقطعين عن العالم الخارجي إلا قليلاً، بعيدين عن المشاركة في تاريخه وأحداثه السياسية والاجتماعية، مشتتين داخل جزيرتهم، لا يفكرون يوماً ما أن تقوم الوحدة بينها وبين البلاد التي تجاورها كمصر والعراق والشام، ولا يعلمون من أسرار الكون إلا أرضهم ورمالها وجبالها وسهولها. والألوهية عندهم تتجسد في أصنام من صنع أيديهم، إليها يتجهون بالعبادة والدعاء، وعندها ينتهي

الأمل والرجاء، هكذا كانوا حين جهر الرسول صلوات الله وسلامه عليه بدعوته، وهي تقوم على الإيمان بإله واحد خالق للكون والحياة، وعلى النظر في أسرار الكون وبدائعه وعجائبه وعلى اتخاذ العلم والعقل أساساً للنظريات العلمية والاجتماعية والسياسية، ومع أن رسالة الإسلام كانت تدعوهم إلى إصلاح أوضاعهم الدينية والاقتصادية، فقد كانت تشعرهم أن القدر قد اختارهم لمهمة كبرى من أكبر المهمات التي تحملها أمة في التاريخ إلى شعوب الأرض تلك هي رسالة الانعتاق والتحرر والعلم والحضارة على أساس ثابت من الإيمان والعمل والخلق الكريم.. وبينما كان رؤساء قريش يتفانون في تكذيب الرسول ومحاربة دعوته وقعت حادثة الإسراء والمعراج، الإسراء من مكة إلى بيت المقدس والمعراج من الأرض إلى السماء وصعقت قريش لهذا النبأ.. إن بين مكة وبين بيت المقدس مسافة شهر على الرواحل، فكيف يقطعها محمد في ذهابه وإيابه بساعات؟.. وإن الإنسان ليستطيع أن يتجول في أنحاء الأرض، أما السماء فما إليها سبيل، فكيف يصعد إليها محمد ثم يعود منها في ساعات؟.. وما لمكة وبيت المقدس؟ وما هي الصلة بين الكعبة والأقصى؟ أليست الكعبة عند هؤلاء هي كل ما في الأرض من معابد؟ وما هي الصلة التي تربط بين سكان مكة وسكان بيت المقدس؟ أليس سكان مكة أشرف أمم الأرض لأنهم حراس الكعبة وسدنتها؟ فما حاجتهم إلى الشعوب الأخرى وما صلتهم بها؟ إنه التفكير الضيق العادي

الوثني الجاهلي. . فلم يستطع يومئذ أن يفهم المغزى، ويستنبط الحكمة، ويستشف حجب الغيب، فيرى من خلال هذه الحادثة أحداث المستقبل ووقائعه التي كتب لها الله في تاريخ هذه الأمة أن تكون. .

لقد كان رسول الله ﷺ يعلم أن قومه سيكذبونه ويهزؤون به حين يقص عليهم نبأ هذه الرحلة المعجزة، ولكن صاحب الرسالة لا يبالي بهزء الجاهلين وإعراض المكذبين ما دامت الرسالة تمشي قدماً نحو أهدافها المقدرة لها. . وما دام هؤلاء الساخرون والمكذبون سيعرفون نبأ هذا الحادث بعد حين ولو بعد وفاة الرسول الأمين. وصدق رسول الله من صدّقه يومئذ من المؤمنين الثابتين، وكذب من كذّبه وارتد عن دينه من المكابرين والجاهلين. وتمضي السنوات بسرعة فإذا بهؤلاء الذين كذبوه وسخروا منه يوم قص عليهم إسراءه إلى بيت المقدس، يقفون بأنفسهم على أبواب المقدس يدقون أبوابها فاتحين، ثم إذا هم ينطلقون من بيت المقدس شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، ليضعوا الشام ومصر والعراق في مملكة واحدة تنبعث منها جيوشهم إلى أنحاء الدنيا فاتحة محررة. .

هذه أول أنباء المعجزة الخالدة من قصة الإسراء، وهذا هو أول تفسير واقعي وسياسي لمغزاها الكبير العميق.

ثم يمضي التاريخ مسرعاً. . فإذا جيوش الصليبيين الغربيين تدق أبواب بيت المقدس، وإذا بالمذابح تجري أنهاراً

في شوارعها ومسجدها الأقصى، وإذا هي عاصمتهم الدينية لمدة تقرب من مائة سنة. ثم يمضي التاريخ، فإذا بصلاح الدين الأيوبي يدق أبواب المقدس مرة أخرى ويستولي عليها فلا يراق دم، ولا تهتك حرمة، ولا يخفر عهد.. وتظل بيت المقدس وفلسطين كلها تحت حكم العرب والمسلمين، وتظل معابدها وكنائسها أمانة يحسنون القيام عليها والحفاظ على حرمتها، حتى تدخلها جيوش الحلفاء في الحرب العالمية الأولى، ويقول القائد الإنجليزي (اللنبي) قولته المشهورة: «الآن انتهت الحروب الصليبية»، يقول ذلك وهو يظن أنهم انتزعوها إلى الأبد من أيدي أصحابها العرب والمسلمين، ويأبى الإنجليز أن يخرجوا من فلسطين إلا أن يدعوا وراءهم «إسرائيل» قائمة في قلب البلاد العربية تغمرها روح الشر والبغي والعدوان.. وها نحن ما نزال في صراع مرير دامٍ مع إسرائيل.. وها هي قصة المسجد الأقصى وبيت المقدس وبلد الإسراء والمعراج ما تزال قائمة بفصولها الدامية لم تنته بعد.. فهل عرفنا السر في حادث الإسراء؟ وهل أدركنا الآن أي مغزى عظيم قد انطوى عليه الحادث المعجز؟ وكم فيه من بشائر ونذر لنا نحن العرب والمسلمين؟

لقد ربط حادث الإسراء ما بين المقدس خاصة وبلاد الشام عامة وبين جزيرة العرب قبل أن تكون بلاد الشام عربية مسلمة، ووصل رسول الله في إسرائه ما بين حدودها الروحية قبل أن تتصل حدودها الأرضية ببضعة عشر عاماً، ووضع

رسول الله بهذا الإسراء أمانة عظيمة في أعناقنا نحن العرب والمسلمين: أن نحتفظ بهذه الأرض كجزء لا يتجزأ من وطننا الكبير وأن لا نسمح للغزاة المفسدين بانتزاع شبر من أرضها ما دمنا أحياء، وأن ندافع عنها بكل ما نملك من قوة، وأن نعتبر الدفاع عنها واجباً يحتمه الدين والعقيدة لا مفر لكل من يؤمن بالله واليوم الآخر من القيام به إلى آخر مدى من القدرة والاستطاعة.

وبعد، فهذه هي الذكرى نحتفل بها اليوم، ومعركتنا مع إسرائيل والدول الاستعمارية في أوجها وعنفها.. إسرائيل التي احتلت عام ١٩٤٨ أخصب أراضي فلسطين وأجملها وأحفلها بالثروة والذكريات.. وشردت من سكان فلسطين مليوناً من الشيوخ والنساء والأطفال والشباب والبنات.. وإسرائيل التي احتلت غزة وشرم الشيخ، وقتلت آلافاً من أبنائها وسجنت آلافاً وشردت آلافاً، وهي تأبى اليوم أن تخرج منها متحدية أمم العالم أجمع، وما كان لها أن تقف هذا الموقف الذي لم تستطع دولتا الغدر والعدوان فرنسا وإنجلترا أن تقفا مثله وهما أقوى منها مالاً ورجالاً ونفوذاً، لولا أن هذه الدول الاستعمارية من ورائها تشجعها على هذا التحدي المؤلم وتغريها بالوقوف إلى جانبها والدفاع عن عدوانها. إن إسرائيل بهذا الموقف، تلقي عن وجهها الأسود قناع الخداع والتضليل، وتكشف عن نواياها العدوانية نحو البقية الباقية من فلسطين وما جاورها من مصر والأردن وسوريا، هذا هو الجو القائم الذي

تعود فيه ذكرى الإسراء إلينا هذا العام لتذكرنا بالمعركة وتكاليفها وأعبائها ولتذكرنا بالواجب الملقى على أعناقنا نحن العرب والمسلمين نحو هذه البلاد المقدسة التي اجتمع فيها من ذكريات الإسلام والمسيحية ما لم يجتمع مثله لجزء من أرض الوطن العربي الفسيح...

ولو أن هذه الذكرى العظيمة كانت لأمة مثل أمتنا في وضعها وصراعها مع الطغيان والظلم والاحتلال لاستفادت منها إلى أبعد حدود الاستفادة للدعاية لقضيتها، ولحشد القوى الروحية والمادية واستثارة المشاعر والعواطف للدفاع عنها.. فلماذا لا نفعل الآن؟ لماذا لا نستفيد من ذكرى الإسراء والمعراج في شرح قضيتنا من جديد للعالم الإسلامي كله لتذكيره بهذا الجزء الغالي من أرضنا الحبيبة؟ لماذا لا نستفيد من هذه الذكرى لاستثارة العواطف الدينية والقومية في شعبنا العربي مسلمه ومسيحيِّه... إن الإسراء كان إلى بيت المقدس في أرض فلسطين دون غيره من أجزاء الأرض، والمسجد الأقصى يجاور كنيسة القيامة أكبر كنيسة لدى مسيحيي العالم، كما يجاور بيت لحم مهد المسيح ومهوى أفئدة المسيحيين في العالم... أفليس من شأن هذه الذكرى أن تستثير شعورنا جميعاً نحو هذا الجزء المحتل من الدنيا العربية التي تكافح اليوم في سبيل التحرر والوحدة والاستقلال؟

إن من حق هذه الذكرى علينا أن نتخذ من أيامها موسماً تهرع فيه الجماهير إلى بيت المقدس لتزور أماكنها وذكرياتها

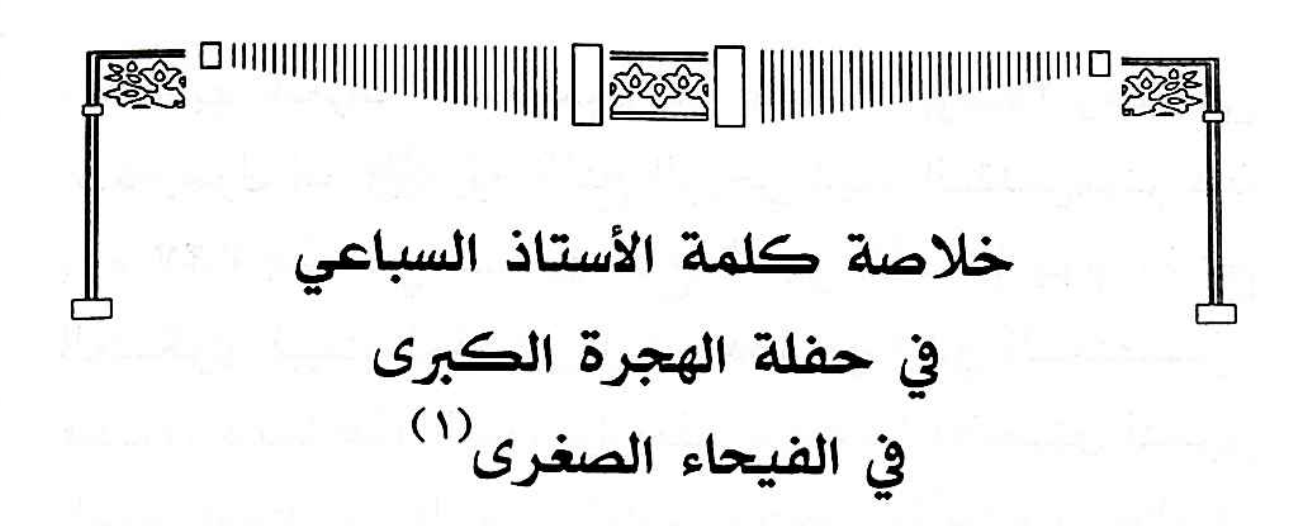
التاريخية وتنطلق إلى الحدود لتشاهد ما يثيرها من صنع الأعداء وعدوانهم المتكرر، وهي مناسبة لأن تقام في بيت المقدس أروع الاحتفالات والمهرجانات لتقوية عزائم سكانه المرابطين على حدود الأعداء وهم تحت مرمى قنابلهم وطائراتهم، كما أن من حق هذه الذكرى أن تعتبر عيداً قومياً تقام فيه المهرجانات في كل بلد وكل قرية في دنيا العرب والإسلام، للتحدث عن فلسطين وتاريخها وذكرياتها، إنها مناسبة من أقوى المناسبات لتجديد روح النضال والكفاح في أبناء أمتنا ما دامت معركتنا مع الاستعمار قائمة على أشدها، وما دامت قوى الشر تسلك كل سبيل لكبت أنفاس الحرية في صدورنا؛ وما دامت الصهيونية العالمية تستثير شعور الغربيين جميعاً ضدنا بأكاذيبها وأباطيلها، فلماذا لا تجند قوى العرب والمسلمين جميعاً لهذه المعركة، ولماذا لا نتخذ من هذه الذكرى مهمازاً يجدد فينا العزائم ويذكرنا بالواجبات الثقيلة والتضحيات الغالية.

إن فيما صنعته الإذاعات العربية في كل من القاهرة ودمشق وعمان هذا العام من نقل برنامج الاحتفال بذكرى الإسراء في المسجد الأقصى إلى جميع أنحاء العالم لبادرة طيبة من بوادر الوعي، تدل على أننا قد بدأنا نستفيد من هذه الذكرى ونقدرها حق قدرها، فهل لنا أن نطمع في المزيد من هذه العناية؟ وأن نرى في العام القادم ذكرى الإسراء والمعراج تهز العالم كله بأحاديثنا واحتفالاتنا وتصميمنا على استرداد الوطن السليب!

أيها العرب والمسلمون. . . لقد كان يوم **٢٧** رجب في عهد رسول الله ﷺ يوم الفتح الروحي لبيت المقدس، ثم كان يوم **٢٧** رجب في عهد صلاح الدين الأيوبي يوم الفتح العسكري لبيت المقدس واستردادها من أيدي المغتصبين، فاذكروا دائماً هذا اليوم، واجعلوا منه مبدأ الانطلاق لتحرير الجزء المحتل من فلسطين الغالية، ولتحرير الأجزاء المحتلة في الوطن العربي الواحد، ولتحرير العالم الإسلامي كله من آثار الاستعمار والاستغلال والعدوان.

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.





خلاصة كلمة الأستاذ السباعي في حفلة الهجرة الكبرى في الفيحاء الصغرى(١)

هذا يوم الذكرى! لا ذكرى رجل مات، ولا حادثة وضعت في التاريخ فتأثر بها قليل من الناس، إنما هي ذكرى الثورة الكبرى التي هزت التاريخ أعنف هز وأبلغه أثراً، ذكرى الحضارة التي استقت منها كل حضارة أتت بعدها ولكنها لم تصل إلى سموها ورحمتها! ذكرى هجرة محمد رسول الله، ومن مثل محمد في الدنيا؟ قائد دعوة، ورسول إنسانية، وبطل حرب، ومرشد الدنيا إلى الصراط المستقيم؟

هي هجرة لم تكن لمال ولا لجاه ولا لمنفعة خاصة، وإنما كانت هجرة في سبيل حق أنكره أبناؤه في بلد، فشاء أن ينتقل بهذا الحق إلى بلد آخر، وفي سبيل دعوة ضاقت بها نفوس العرب في موطن فتقبلتها نفوسهم في موطن قريب منه.

هي هجرة أعلنت للدنيا أنبل ثورة لتقيم من بعد ذلك أروع حضارة!. فأما الثورة فهي ثورة الحق على الباطل والإيمان على الكفر، والحرية على العبودية، والعلم على

---

(١) جريدة المنار السورية، العدد (١٠٥)، تشرين الثاني، ١٩٤٦م.

الجهل، والعدالة على الظلم، وهل كان رسول الله حين يتلو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾، هل كان إلا ثائراً على استعباد الملوك للشعوب، والأقوياء للضعفاء، والأشراف للعبيد يفهمهم بلغة الخلود بطلان هذا الاستعباد، وانتهاء أربابه، فلا تفاضل بعد اليوم بمال ولا جاه ولا غطرسة وإنما التفاضل بالتقوى والعمل الصالح؟ وهل كان رسول الله حين ينتقل من بلد أبى أبناؤه إلا أن يعبدوا اللات والعزى إلى بلد أبى أبناؤه إلا أن يعبدوا إلهاً واحداً لا شريك له، هل كان رسول الله في هذا إلا ثائراً على الكفر والباطل رافعاً لواء الحق والإيمان؟.. وهل كان رسول الله حين قرر بعد الهجرة أن في أموال الأغنياء حقاً معلوماً للفقراء والضعفاء لا يجوز انتقاصه ولا يصح التجاوز عليه، هل كان إلا ثائراً على القسوة والبخل والظلم وحاملاً راية الرحمة والسخاء والعدالة؟! وهل كان رسول الله حين هاجر من بلد لا تحترم فيه العقيدة، ولا تصان فيه الكرامة، ولا تحفظ فيه الأخلاق إلى بلد يتوفر فيه هذا كله، هل كان إلا ثائراً على الجمود والرجعية والانحلال ليحقق للإنسان أسمى عقيدة، وأنبل كرامة وأسمى أخلاق؟!

وأما الحضارة فهي حضارة لا تعتمد على السفك، ولا تتسابق إلى التدمير، ولا تتفنن في وسائل الشر، ولا تتخذ المثل العليا ستاراً للتلاعب بالضعفاء، ولا تتستر بمبادىء الرحمة والمساواة وإنصاف الطبقات الضعيفة لتنشر نفوذها

وتحقق أطماعها وتروي ظمأها للاستعمار ونهمتها للفتح! لا! ليست هي هذه الحضارة، ولكنها حضارة تعف عن المغلوبين، وتعفو عن المسيئين، وتأبى أن تنال الفلاحين من الأمم المحاربة لها بسوء أو أذى، وترفع من شأن العامل فتحفظ له حقه، وتصون له آدابه، وتمنعه عن السقوط كما تمنعه عن الفقر! حضارة تتسع للأديان جميعاً فلا تنظر إلا لما يفيد الناس، ولا تتخذ التسامح ستاراً لتخفي من ورائه تعصباً شديداً ولؤماً دفيناً! حضارة أمن الناس في ظلها على عقائدهم وأرواحهم وأموالهم وأعراضهم وكرامتهم، ونعم الناس في عهدها بالرخاء والسعة حتى قال أحد ولاة أنصارها: كنا نطوف بالصدقات على الناس فلا نجد من يقبلها!..

يا سيدي محمد بن عبد الله!

إننا في هذا اليوم حين نشيد بهجرتك نذكر الأثر الذي ترتب عليها فلولاها لما استقامت للناس عقيدة، ولا سمت أرواح، ولا طهرت نفوس، ولولاها لما كان أحد يدري الآن في أي طريق يسير؟! ونحن نذكر ذلك لا ننسى أن ننبه الدنيا إلى الفرق بين ثورتك وثورة الأمم من بعدك، وحضارتك وحضارة الشعوب اليوم! لقد أعلنت في ثورتك قبل أربعة عشر قرناً حقوق الإنسان وكرامته وحريته فشهد التاريخ أنك جعلت مبادىء هذه الثورة أمراً واقعاً، وأن خلفاءك من بعدك كانوا أكرم من حافظ عليها وعمل بها، ولقد كان موقفك يا رسول الله

يوم فتحت مكة فقلت لمن آذوك واضطهدوك وعذبوك وناصبوك العداء واحداً وعشرين عاماً: «**يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء**»، لقد كان موقفك هذا موقف من يشهد له التاريخ أنه أعلن ونفذ، وقال وعمل، وفتح أبواب الرجاء فلم يخيب أملاً ولم يقطع رجاء، ولقد كان موقف عمر من بعدك حين جاء بعمرو بن العاص وولده ليؤنبهما على ما فعل ولده بالقبطي فلما اقتص منه القبطي قال لعمرو: «يا عمرو ومتى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً»، لقد كان هذا موقف أمة شهد لها التاريخ أنها لم تتوسع في الفتح، ولم تشهر السيف، ولم تدك الحصون إلا لتنفيذ ما أعلنه قائدها في ثورته الكبرى، وأنها صدقت ما عاهدت ربها عليه يوم انساحت في الأرض أن لا تفسد في الديار ولا تبغي على الشعوب ولا تريد علواً في الأرض ولا استكباراً!..

هذا يا رسول الله ما نذكره اليوم ثم نذكر بجانبه ثورة حمراء في الغرب، وثورة حمراء في قسم من الشرق، أعلنتا حرية الإنسان فسالت أرضهما بالدماء، وفاض تاريخهما بالظلم، وشهدت البلاد المغلوبة لشعب أولاهما أنه أسوأ الأمم حكماً وأقساها ضمائر وأشدها عطشاً للدماء والدمار. ويشهد اليوم تاريخ ثانيتهما بأن قادتها لا يتخلفون عن كبار الفاتحين في شهوة ولا رغبة ولا هوى!.. نذكر اليوم يا رسول الله مع ما نذكره من حرص الحضارة التي أنشأتها على الوفاء بالوعد والاستقامة على العهد! أن أمماً في عصرنا الحاضر أعطت من

المواثيق ما لا يكاد يحصيها العد، وعدت الشعوب بالأمن السابغ والعيش الرغد فلما خلا لها الجو من عدوها الغاشم، نسيت ما وعدت، وغدرت أول ما غدرت بشعب صغير في بلد صغير كل ذنبه أنه آمن بالمواثيق واستنام للعهود فإذا هو مهدد اليوم بالفناء إن لم يرحل عن بلده، يقابل غزواً بعد غزو وهجوماً بعد هجوم وما يبغي عليه إلا الساسة الكبار ممن سيسجِّل عليهم التاريخ أنهم أكذب من حدَّث، وأفجر من حكم!

يا سيدي يا رسول الله

لقد أثمرت ثورتك للإنسانية أروع حضارة، كما أنتجت أسمى عظمة. كما قدمت أنبل الأبطال وأكمل العظماء كلما مات منهم عظيم قام من بعده عظيم! ولقد أثمرت ثوراتهم أقسى حضارة، وأشقى حياة، وقدمت للأمم طواغيت لا ينتهي طمعهم كلما مات منهم طاغية قام من بعده أشد وأدهى! فيا رسول الحق والقوة والحرية! يميناً بمن بعثك بالحق أن الحديث عنك اليوم ليشجى ويؤلم كما يسر ويطرب، لئن طربت القلوب لروائع آثارك وجميل أياديك فإنها ليؤلمها أن يكفر بهذه الآثار فريق أعرضوا عنك ليتبسموا لغيرك ممن لا يبلغ مكان قدميك عظمة وخلوداً، وكفروا بشريعتك ليؤمنوا بشريعة لا تداني شريعتك بعد نظر ولا استقامة طريق ولا صدق منهج!

ولئن كان في موقفهم عقوق وجمود ولؤم وضعف

واستخذاء! فليعلمن أن من جنودك الصادقين وفاء واعترافاً ونبلاً وقوة وعظيم أباء! ولتعلمن غداً يا رسول الله أن هذه الأمة أكرم على الله وعلى نفسها وعلى التاريخ من أن تجحد فضلك وتهجر شرعتك، أو أن تترك شرذمة الردة تسجل في تاريخنا الحديث ما نخجل منه أمام الأحفاد! لا يا رسول الله لنطهرنَّ أرض الجزيرة من فلول الخائنين والجاحدين كما طهرتها من آثار الجاهلين والمشركين؟...

وأنتم يا شباب

اصغوا إلى محمد رسول الله! إنه يناديكم من دنيا الخلود! إنه يفتح عيونكم للنور، ويبعث فيكم الأمل، ويوقظ في عزائمكم وثبة الحياة! حذار أن تعرضوا عن النداء فإنما هو إهابة المجد! وحذار أن تتخلفوا عن القافلة فإنما هو ركب الخلود! وحذار أن تتلكؤوا في المسير فإنما هو أول الموت!...

يا شباب

ها هي دعوة الرسول تطرق آذانكم من جديد بشكل يرضي طموحكم ويحقق آمالكم، دعوة إلى الكرامة في أسمى مظاهرها، وإلى الخُلُق في أشرف غاياته، وهل هذه إلا دعوة محمد رسول الله؟ فمن منكم يأبى أن يمد إليها يده أو يقفل دونها قلبه؟ وحذار يا شباب أن تصغوا إلى ما يقال لكم من أن تمجيد محمد تفرقة للصفوف، والاستفادة من مبادىء ثورته إثارة

للنعرات! إن لمحمد صلوات الله عليه من الفضل على مسيحيي العرب ما له على مسلميهم، وبذلك كان له من الحب في قلوب المخلصين منهم ما لا يقل عن الحب في قلوبكم.

ولن تجتمع كلمة العرب إلا على هوى محمد، ولن تسير كتائبهم إلا تحت قيادته، ولن يرتفع فوق رؤوسهم إلا تاج صنع من نسج دعوته!

سيقول لكم الضعفاء والجاحدون: إن هذا لن يكون، وسيقول لهم التاريخ اليوم وغداً وبعد غد: إن هذا لا بد من أن يكون!





في يوم الذكرى الخالدة[1]

يجب أن يحدد العرب موقفهم من صاحبها

● هذا يوم الذكرى الخالدة!

ذكرى تحرير العرب وانبعاثهم وانعتاقهم من أسر الوثنية والجهالة والخرافة والانزواء في الصحراء وراء الإبل والمراعي.

ذكرى خلق العرب خلقاً جديداً يكاد يكون تاماً في كل شيء: في التفكير والمعيشة والعقيدة والمثل الأعلى الذي فقده العرب في جاهليتهم فملأ به محمد قلوبهم في إسلاميتهم!

ذكرى تهديم العروش الظالمة التي كانت تسوق الشعوب إلى حروب مدمرة تربط بالسلاسل، وتساق سوق الأغنام، وتعرض أجسامها للموت، وبيوتها للخراب، وهي لا ناقة لها في الحروب ولا جمل! وهل كانت حروب الفرس والروم إلا حروباً بين ملكين يتنازعان السلطان، لا بين أمتين تتنازعان قيادة الحضارة وتركيز دعائم السلام؟!.

---

(١) جريدة المنار السورية، العدد (١٥١)، في ٤/٢/١٩٤٧م.

ذكرى تصحيح العقائد، وتقويم الأخلاق، وتحطيم القيود التي كانت تقيد أبناء الإنسانية في تفكيرهم وحرياتهم. فما كانوا يتنفسون إلا من نوافذ المعابد، ولا كانوا يفكرون إلا بتفكير الخرافيين والنفعيين من مستغلي الأديان وطالبي السلطان؟!...

إنها ذكرى ولادة طفل ولد في أحضان اليتم ولكنه انتهى إلى ميادين الخلود! ونشأة دين ابتدأ في مكة برجل وطفل وامرأة وخادم، فما هي إلا عشرون من السنين حتى كان دين الجزيرة يقف على أطرافها لينشر أجنحة الرحمة على أقطار الأرض الغارقة في الجهالات والضلالات! وتأسيس حضارة نشأت في الرمال الجرداء وانتهت إلى أن تكون لها الجنان والقصور والثقافات والآداب التي تغزو أوروبا من بعد فإذا هي تبعثها إلى الحياة، وتدفعها لبناء مدنيتها الحاضرة؟

هذه هي الذكرى! فهل رأى العالم أروع منها وأجمل وأعظم أثراً؟ وهذا هو المولود! فهل رأت الإنسانية أيمن منه نقيبة وأجزل خيراً؟ وتلك هي المعجزة! فماذا يريد المنكرون بعد ذلك من معجزات وآيات بينات؟!

• إننا لنقف اليوم بإجلال وخضوع أمام هذه الذكرى التي أدخلت العرب حظيرة الخلود وجعلتهم في التاريخ شيئاً مذكوراً! وإننا لنقارن بين ذلك الماضي الذي بعثته هذه الذكرى ذهبياً ناصعاً يتلألأ بالأمجاد والمفاخر، وبين هذا الحاضر الذي

جعلته الجهالة والغفلة والجمود باهتاً قاتماً يفيض بالأسى والعبودية والداهيات العوافر!... نقارن بين ماض وحاضر، وعزة وذلة، وقيادة واتباع، فتهولنا الفجوة، ويعظم لدينا التقصير، وتكبر أمام أبصارنا الجريمة!...

• هي جريمة وإثم وجحود، ما في ذلك ريب! وهل هناك جريمة أكبر من أن نغمط صاحب الذكرى حقه فنلوذ بغيره من عظماء المادة والفتح، نلتمس عندهم النجاة وبقيادتهم النصر؟ وهل هنالك إثم أكبر من أن نغفل ما جاء به صاحب هذه الذكرى من تشريع نظم شؤون الدنيا وحقق لها السعادة قروناً متتالية، ثم ندور بأعيننا على تشريع من هذه الأمم المعاصرة التي عجزت عن إسعاد نفسها فغفلنا عن العبرة، وأعشى أبصارنا المظهر الكاذب البراق؟ وهل هناك جحود أكثر من أن نعتبر الاحتفال بصاحب هذه الذكرى والدعوة إليه، وحث أتباعه على الاستفادة من تعاليمه، جموداً أو رجعية وطائفية؟!. ولسنا في يومنا هذا ننحى باللوم على أولئك الذين يملؤون الدنيا ضجيجاً وصراخاً في الصحف والنوادي حين تحين ذكرى ثورة أجنبية لم تقم في بلادنا ولم يكن قادتها من أبناء جلدتنا فإذا جاءت ذكرى الثورة التي ألهبت دنيا الظالمين، وأضاءت دنيا الغافلين وسمت بالروح وعنيت بالمادة، وحققت عزة الدنيا وسعادة الآخرة... إذا جاءت هذه الذكرى مروا بها مستخفين، ولم يتحرك لهم قلم، ولم يرتفع لهم صوت! نحن لا نلوم هؤلاء فقد اقتطعوا أنفسهم من أمتهم ومن تاريخهم ومن

قوميتهم ليتمرغوا على أعتاب الأمم الأخرى يتلقطون فتات موائدها. ومن بلغت نفسه في المهانة إلى مثل هذا الحد ضاع معه اللوم، فما لجرح بميت إيلام!... ولكننا نعتب اليوم على فريق من إخواننا القوميين العرب الذين لا نشك في صدق عروبتهم، وحبهم لأمتهم وبلادهم كيف أهملوا صاحب هذه الذكرى وتشريعه وتراثه وتاريخه فاعتبروا الاستفادة من ذلك كله جموداً ورجعية وتأخراً؟ أهذا يتفق مع مفهوم القومية؟ أيتفق مع تاريخها؟ أيتفق مع مصلحة العرب الذين يلتف حولهم أربعمائة مليون يحبونهم الحب كله، ويتمنون لهم الخير كله، وما أحبوهم ولا أرادوا لهم الخير إلا حباً بصاحب هذه الذكرى وإيماناً بهديه وتعليمه؟ إن صاحب هذه الذكرى الرسول العظيم الخالد كان صاحب الفضل على كل عربي منذ بعث حتى يرث الله الأرض ومن عليها مسلماً، كان أو غير مسلم، ولا يسع عربياً مخلصاً لعروبته أن ينكر فضله، ويكره شرعته، فعلامَ أيها الإخوان تتوارون في أنفسكم خجلاً، وتغضون الطرف حياء، وتلوون وجوهكم استخفافاً حينما يذكر منقذ العرب الأكبر بخير أو ينتمي إليه شباب، أو تقوم للدعوة إلى إحياء أسس شريعته الخالدة جماعة؟...

• أما بعد فالعرب اليوم على مفترق الطرق، إما أن يعرفوا ما به أعزهم الله وخلدهم في التاريخ، فيعضوا عليه بالنواجذ، ويحملوا المصباح مرة أخرى، ليقودوا الركب من جديد! وإما أن يبتغوا ديناً جديداً وشرعة جديدة، وفيلسوفاً

جديداً يؤسس لهم مجداً جديداً، يومئذ يتيهون في بيداء الفوضى والانقلابات مئات السنين ثم لا يعلمون إلى أي مكان يصلون! ويومئذ لا تكون احتفالاتهم بصاحب الذكرى الخالدة إلا ضرباً من النفاق بل نوعاً من العبث لا معنى لضياع الوقت به، وإنفاق الأموال في سبيله!.

• يا أبناء العرب الخالدين! إن «عروبتكم» لا تزال مرتبطة بقيادة الرسول الأكبر فارفعوا رؤوسكم اعتزازاً به، وارفعوا أصواتكم دعوة إليه، واملؤوا قلوبكم نوراً من وحيه وتعاليمه، وخذوا بما دعا إليه من جمع الشمل على مصلحة الأمة، ورفع اللواء لتحرير الفكر، وحشد الكتائب لتهديم الظلم، افعلوا هذا! وأنتم الفائزون مسلمين ومسيحيين، فإذا كان محمد رسول المسلمين فإنه قائد العرب ومخلد لغتهم وحضارتهم في العالمين!...

• أيها الرسول الكريم! لك في هذا اليوم من سبعين مليوناً من العرب تحيات الحب والإجلال والإكبار، ولك من أربعمائة مليون من المسلمين تحيات الطاعة والانقياد والانتصار. والسلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.

مصطفى السباعي

من أروع الرسائل

التعارفية تنشر

لأول مرة في كتاب

حواريات
في التقارب الإسلامي المسيحي
(قواسم مشتركة وأهداف متحدة)
في أروع الرسائل المتبادلة

بقلم

د. مصطفى السباعي



الرسالة الأولى
من مصطفى السباعي إلى صديقه أنطوان

لقد كفر الغرب بمبادىء المسيحيّة، وأنكر العَدالة الاجتماعية، وانحرف عن المُثُل العليا

أيها الأخ الكريم:

ما أحوجنا في هذه المرحلة العصيبة التي يمر بها العالم، أن نتعاون في الإصلاح ونتآزر في الخير، ويبث كل واحد منا أخاه شكاته، عسى أن يجد عنده منفرجاً. والأنبياء دعاة حق إلى الله، وحملة مشعل يبدد ظلمات الحياة، ورسل حب وتعاون فيما بين الناس، وإنك لتعلم يا أخي مبلغ ما يصيب الإنسانية اليوم من رهق وإعياء، فالحروب متجددة لا تنطفىء نيران واحدة حتى تشعل نيران أخرى، والطغاة كثر لا تتخلص البشرية من واحد حتى تبتلى بأشد وأدهى، والمطامع الاستعمارية هي التي تحرك الرؤساء والقادة وزعماء الأمم الكبرى، وكل يدعي رحمة بالضعفاء، ورغبة في التحرير، وتعطشاً إلى انطلاق الإنسانية من أسر الخوف والفقر والضغط والاستغلال.. وهكذا يتخبط العالم اليوم في ظلمات بعضها

فوق بعض، وتتلفت الشعوب تتلمس طريق النجاة فلا تهتدي إلى أقومها سبيلاً، فليس إلا أن نتقدم لنحمل لواء الإنقاذ مرة أخرى اليوم والإنسانية متعطشة إلى جرعة تشفي بها أمراضها وعللها، نجد من واجبنا أن نقدم لها العلاج والدواء، وما دامت الأديان في أصولها السماوية تنزع إلى خير الناس جميعاً، وربط قلوبهم برابطة من التعاون على الحياة المشتركة في ظل من الطمأنينة والنعيم، فمن الواجب أن تتقدم الأديان اليوم لتبث روحها، وتجرد سلاحها، وتكافح عوامل الشقاء والعناء والفوضى والتحلل.

حقيقة الأديان:

وأنت تعلم أيها الأخ أن الأديان السماوية تستقي كلها من معين واحد، وتهدف في النهاية إلى غاية واحدة. فما الدين في حقيقته إلا عمل الروح في تهذيب غرائز النفس، وعمل القلب في السمو بأعمال البدن، وعمل الإيمان في جميع الناس حول الهدف الأسمى وهو حب الله والتقرب إليه بخدمة الناس وإسعادهم وإبعاد الأذى عنهم، وما الأنبياء مهما اختلفت عصورهم إلا وسطاء لتقريب القلوب كلما باعدت بينها الأهواء ولجمع الصفوف كلما فرقتها الأنانيات، ولتأليف الأمم بعضها على بعض كلما أجَّجت نار الحروب فيما بينها دعوة الأحقاد والعصبيات. هنا لم تستغن الإنسانية في عصورها المختلفة عن هداية الأنبياء، ولولاهم لكان التاريخ الإنساني سلسلة فواجع ومصائب وحروب تجعل الإنسان أقسى من الحيوان وحشية وافتراساً.

نحن فهمنا رسالة الأديان:

هذه هي يا أخي حقيقة الأديان في كلمات مجملة كما تعلمها أنت وأعلمها أنا ويعلمها كل نبي أرسله الله هادياً وبشيراً، وبهذه الروح كان الرسول يتلو على الناس قول الله الذي أنزل عليه: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾، وبهذه الروح نفسها اندفع سلفنا إلى بقاع الأرض يحملون حقيقة الأديان ورسالتها الخالدة في يد، ويحملون باليد الأخرى السيف الذي يحمي عقائد الأمم من أن يتلاعب بها المستغلون والمتاجرون بالدين من رؤساء وأغنياء وعلماء...

وفتحت لأجدادنا مشارق الأرض ومغاربها، فسجل لهم التاريخ أروع آيات النبل والتسامح واحترام العقائد والأديان مما جعل حضارتهم ملتقى حضارات الأمم المختلفة والعقائد المتباينة، وحقيقة أن الإسلام كان يحمل لواءها لكن الأديان جميعاً اشتركت في إقامة أسس تلك الحضارة، ولعل هذا هو السر الذي جعل أهل الأديان يرون في حكم الإسلام حكماً وارف الظلال لا يختص بشعب ولا دين ولا لغة. والذي يهمني هنا أن أشير إليه، هو أن أتباع الإسلام والمسيحية من نصارى العرب عاشوا خلال ثلاثة عشر قرناً متعاونين على الخير بل لقد استقبل نصارى الشام إخوانهم مسلمي الجزيرة العربية في الفتوحات الأولى، وانضووا تحت لواءٍ واحد، ووقفوا مسلمين

ونصارى يحاربون وثنية الفرس وهرطقة الروم. . . ولئن كانت تقع أحياناً حوادث خصام بينهم فلقد كان منشؤها الجهل من الطرفين بالحقيقة الدينية الخالدة، وسرعان ما يتلافى الفاهمون لروح الرسالات الإلٓهية مظاهر الخصام ويعود الصفاء والوئام لتسير الحضارة الإنسانية سيرها في مضمار الأمة والسلام.

ونحن أقمنا التضامن الاجتماعي..

هذا شيء، وشيء آخر إن هذا الشرق العربي كان أفهم الأمم لرسالات الأنبياء، فلا يعرف الأغنياء قساوة القلب وانقباض اليد، ولا يعرف الفقراء الحقد والثورة والفتن والاضطرابات بل أولئك يعطون وينفقون وهؤلاء يعملون ويصبرون. . ولعل التاريخ يحفظ لأولئك الأغنياء أروع آيات البر بالإنسانية المستضعفة اذ كانوا يوقفون الأراضي والدور والعقارات لتطبيب القطط والكلاب التي توجد في الطرق مريضة!. ولإعطاء الأولاد والخدم أوانٍ بدلاً من الأواني التي يكسرونها أثناء الخدمة، ولرعي الخيل العاجزة عن العمل حتى تلقى حتفها شبعة مرتاحة. . أما الآيات التي سجلها الفقراء في جود نفوسهم وسخاء أيديهم رغم قلة أموالهم؛ فهي أكثر من أن تحصى في كتاب واحد. . وهل هنالك أروع من أن يعمل عامل طول الليل أجيراً لجماعة يسقي لهم أراضيهم بالماء ينقله من بئر قريبة، حتى إذا أصبح وقبض أجرته صاعين من شعير أخذ أحدهما إلى أهله يأكلونه، وجاء بالثاني يقول للرسول ﷺ:

ضع هذا يا رسول الله حيث ترى موقعه عند إخواني الفقراء؟..
ولعله لم يسجل في تاريخ أمة أن الفقراء كانوا ينفسون على الأغنياء سبقهم إلى الخير لا استئثارهم بالمال والثراء والنعيم.. بلى! لقد جاء الفقراء مرة يقولون: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم.. فعلَّمهم أن طرق الخير كثيرة إحداها المال.. وأن من فاته المال لم يفته عمل الخير، وأرشدهم إلى أعمال مهذبة للروح، مفيدة للمجتمع، فاستكثروا منها وكانوا مع فقرهم يساهمون في رقي المجموع وطمأنينة الفرد. وإذا علمت هذا لم تعجب يا أخي أن ترى في تاريخ هذه الأمة نصَّين لا مثيل لهما في تاريخ أمة من الأمم..
أولهما أنه لما أرسل محمد ﷺ «معاذاً بن جبل» إلى اليمن ليقبض الصدقات من الأغنياء ويردها في الفقراء.. فأرسل إلى رسول الله بعد ذهابه بأشهر أموالاً كثيرة.. وعجب ﷺ من صنيعه، فأرسل إليه أني إنما بعثتك لتقبض الصدقات من أغنياء اليمن وتردها إلى فقرائهم لا لترسلها إلي! فأجابه معاذ بقوله: ما أرسلت لك تلك الأموال إلا بعد أن فاضت عن حاجة الفقراء ولم يبق عندي فقير واحد!.. وثانيهما ما يرويه التاريخ على لسان ولاة أحد الخلفاء «عمر بن عبد العزيز» إذ يقولون: «كنا نطوف بالصدقات على الناس فلا نجد من يقبلها!».
وهكذا يا أخي سارت الإنسانية شوطاً بعيداً قد ائتلفت ثروة الغني وبره وإيثاره، مع عمل الفقير وعفته واصطباره..

ونحن حكمنا فعدلنا:

وشيء ثالث أقوله لك أيها الأخ، إن هذه الأمة أعلنت للدنيا مبادئ الحق والحرية والعدالة، واعترفت للإنسان بحريته في العبادة والعقيدة والعمل والإقامة، فعلت هذا حين تقدمت للتبشير برسالتها بين أمم الأرض الغارقة في جهالتها، فلما استولت على أزمة الحكم في كثير من بقاع الأرض لم تتنكر لمبادئها، ولم تتحلب أفواهها على خيرات الشعوب تسرقها وتغتصبها، ولم تهدر كرامة المغلوبين وإنسانيتهم، ولم تنقض عهودها ومواثيقها التي أعطتها راضية مختارة. بل احترمت العقائد، وعدلت بين المغلوب والغالب، ووفت بالعهود والمواثيق، وأمَّنت كل إنسان على ماله ونفسه وحريته، وليس أدل على هذا من أن الناس كانوا يرتاحون لحكمها، ويرحبون بمقدم جيوشها، ويفضلون رعايتها على رعاية الدول الجاثمة فوق صدورهم، وليس غريباً أن يحارب أهل حمص مع جيوشها حين اضطرت للتراجع وأراد قائدها إرجاع ما أخذه من أموال الصلح إذ أصبح عاجزاً عن حمايتهم فقال له أهل حمص: «والله لعدلكم وحكمكم أحب إلينا من ظلم الرومان وبغيهم، ولندفعن عنكم جند هرقل حتى يكتب الله لكم النصر، والله لو كانوا مكانكم لم يردوا إلينا شيئاً مما أخذوه بل أخذوا معهم كل شيء يستطيعون حمله»!.. ويسجل التاريخ لأول مرة حزن المغلوبين على فراق الغالبين، وما كان ذلك إلا لأنه حزن القطيع على رعاته الصالحين المصلحين!..

أما هؤلاء الغربيون فقد أنكروا ما فعلته أمتي وقدمته من خير لهذه الإنسانية يوم ملكت وحكمت وقادت ركب المدنية؛ ورفعت ألوية الحضارة..

ولكن هؤلاء الأقوياء اليوم الذين ملؤوا الأرض فساداً، وطبقوها ظلماً وجوراً واضطهاداً.. هؤلاء يا أخي لا يخجلون أن يقولوا في يوم ميلاد السيد المسيح: إن حضارتهم تتلخص في كلمتين: المسيحية والإنسانية!. بلى! لقد قالها أحد رؤسائهم وهو يحسب أنه يتقرب إلى المسيح بالأولى، وإلى الشعوب الضعيفة بالثانية.. فهل كانوا في حضارتهم يمثلون رسالة المسيح؟ أو يعملون للإنسانية التي أتى الأنبياء جميعاً لإسعادها، وكنت أنت في الدنيا حامل لوائها وداعية البر بالمستضعفين فيها؟..

فلم يفهموا حقيقة الأديان:

أنا لا أظن أنك ترضى عن فهمهم للنصرانية بما ابتدعوا فيها، وتلاعبوا بمبادئها واتخذوها وسيلة للانتقام أحياناً، وللاستغلال والاستعمار أحياناً.. جعلوا شريعتك طقوساً باهتة في الصلوات، ورقصاً وسِكراً وأنواراً باهرة في الأعياد والحفلات، واتخذوا من اسم المسيح الطاهر أداة لتهييج السذج والبسطاء، في حروب طاحنة يذكرها التاريخ باسم «الحروب الصليبية» فما فارقوا بلادهم حتى عاثوا فساداً في كل بلد مروا بها. حتى هنغاريا النصرانية، والقسطنطينية قاعدة

الكنيسة الشرقية ضجتا من جرائمهم وسرقاتهم وفساد أخلاقهم.. ثم جاؤوا إلى الشرق العربي فظلوا فيه مائتي سنة لا أريد أن أصف لك فظائعهم فيها وجرائمهم؛ وسفكهم للدماء، وانتهاكهم للأعراض وغدرهم بالآمنين، ونكثهم بالعهود، فأنت تعلم من ذلك ما أعلم.

ثم كانت محاكم التفتيش في إسبانيا المسلمة، فهل سمعت في التاريخ أشد هولاً من جرائمها وفظائع رجالها وقسوة قلوب الذين أشرفوا عليها؟ ولم يخجلوا أن ينسبوا إلى المسيح كل القسوة والهمجية!.. وحاشاك يا أخي أن ترضى بها أو تأمر بمثلها ولكنه الجهل بحقيقة ما أوتيت، والاستغلال لجلال ما إليه دعوت.. ثم كانت لهم الغلبة على دول الشرق فأفسدوا ما بين طوائفه باسم الدين، وأشعلوا نار المذابح الطائفية ليوطدوا أقدام استعمارهم في البلاد التي نكبت بدسائسهم، وأسسوا المدارس وأرسلوا البعثات باسم التعليم والنشر! فهل كان عملهم تعليماً وتبشيراً؟ لا والله! ما كان تعليمهم إلا فساداً ودساً وبناءً لمطامعهم الاستعمارية، ولا كان تبشيرهم إلا تنفيراً وكفراً وكذباً وتغريراً بالأطفال والبنات والنساء.. أتدري يا أخي ماذا يقولون عن محمد ﷺ؟ أنهم لا يتركون نقيصة إلا ألصقوها به وإني لأوذي شعورك إن ذكرت لك ما يقولون!.

فهل من رسالتك الكذب وقلب الحقائق وتحقير الأنبياء؟.. وهل من رسالتك إجبار الناس على دين غير دينهم؟ وإكراه الأطفال على صلاة غير صلاتهم؟ هكذا يفعلون في

مدارس التبشير التي زعموا أنهم يبشرون فيها باسم المسيح، وكيف ترضى أنت أو ترضى تعاليمك السمحة مثل تلك المخزيات؟ ولكنه الجهل بحقيقة ما به أتيت، والاستغلال لجلال ما إليه دعوت!..

ولم يقيموا العدالة الاجتماعية:

وكما ابتعدوا عن تعاليم المسيح وفهم حقيقة الأديان، ابتعدوا عن الفقر والزهد؛ فلم يقيموا العدالة الاجتماعية في مجتمعاتهم. بل أثرى أغنياؤهم عن طريق الظلم والاستغلال والاحتكار والقمار والربا وكل طريق للربح وجدوه أمامهم، دون أن يعرفوا حلالاً أو حراماً، أو يحترموا قانوناً أو نظاماً. وبذلك نشأت عندهم طبقة رأسمالية قاسية متحجرة في عواطفها حتى بلغت بها القسوة أن كان أحدها يملك عشرات القرى ثم يبيعها وما عليها من دواب؛ ومن عليها من فلاحين ومزارعين!.. وكان طبيعياً أن يثور الفقراء والمعدمون على هذا الوضع وانقلبت الثورة النفسية إلى مبادىء هدامة لكل دين، محاربة لكل شريعة، مخالفة لكل نظام تستبيح كل شيء للقضاء على الرأسمالية والرأسماليين فيما تزعم.. فكانت بلاء جديداً وقد كان الظن بها أن تحارب بلاء قديماً.. وهكذا كانوا في تهديمهم لصرح العدالة الاجتماعية عاملين على نشر تلك الثورة التي تريد أن تكتسح الأديان والأخلاق كما تكتسح الأموال والحريات.. ولقد تنبهوا أخيراً إلى أخطارها، فقاموا يقاومونها

بكل وسائل المقاومة عندهم. وعبثاً يفعلون ذلك! ولن يستطيعوا إيقاف تيارها ما داموا قد فقدوا الروح التي تلطف جشع المادة، والعقيدة التي تستهين بلذة الدنيا في سبيل المثل العليا، إن هذه الثورة الجديدة عقيدة، ولن تحارب إلا بعقيدة مثلها أو أقوى منها! وأين يجدون القوة في نفوس ذلت للدولار، وأسفّت في غرائزها إلى غرائز الحيوانات الدنيا وما زالوا يغذونها بلذائذ الشهوة كما يغذى بالهشيم اندلاع النار؟

ولم ينفذوا مبادئهم:

وكما خالفوا المسيح في الأولى والثانية أنكروا المبادئ كلها حتى التي يعتقدون أن المسيح قال بها. إنهم يقرأون في الإنجيل الذي بين أيديهم قولاً نسبوه لعيسى ﷺ: «أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم» ويقرأون: «من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الخد الأيسر»، ما أجمله من حث على التسامح والصفح لو أنهم عملوا به!. ولكن أين حبهم لأعدائهم، وقد حرقوهم وصلبوهم وشنقوهم وصبوا فوق رؤوسهم الزيت والإسفلت وهم أحياء؟ وأين مباركتهم للاعنيهم، وقد دمروا قراهم، وخربوا مدنهم، ويتموا أطفالهم، وأيّموا نساءهم وجعلوا ديارهم خرائب بلاقع؟ وأين إدارة الخد الأيسر لمن لطمهم على الخد الأيمن، وقد اعتدوا على من لم يعتد عليهم ولم يضربهم ولم يؤذهم في أوطانهم، اعتدوا عليهم فسلبوهم أموالهم وعقائدهم وأوطانهم.. ولا أدري يا أخي هل إقرار

تقسيم فلسطين تطبيق للحكمة «السابقة» من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الخد الأيسر؟ ماذا فعل العرب معهم حتى يحكموا باقتطاع جزء من بلادهم ليعطوها إلى غرباء لم يعرفوها قبل اليوم، ولا كان بينهم وبين أهلها مودة أو صلة؟

وليس هذا يا أخي مخالفة لتعاليم المسيح فحسب، وظلماً في الحكم فقط، ولكنه مع هذا إنكار للمبادىء التي أعلنوها في حربين عالميتين؟ أفلا ترى معي أنهم يتخذون من مبادىء الحق والعدالة وحريات الشعوب شباكاً يصطادون بها كل أمة ضعيفة، وكل زعيم مغفل، وكل مثقف جاهل!. وكل شعب أبله؟.. لقد أعلنت أمتي قبل فتوحها قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾، فلما فتحت لها الدنيا وقف عمر ليقتص من ولد الأمير الظالم لولد المحكوم المظلوم ثم يقول على سمع الدنيا وبصرها: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!.» ولقد أعلن هؤلاء الغربيون قبل أن ينتصروا مبادىء «ويلسن» العشرة، وميثاق الأطلانطي المشهور، والحريات الأربع، فلما انتصروا وتمت لهم الغلبة وقف أتلي ينقض الكتاب الأبيض لعرب فلسطين، ووقف ترومان يريد إدخال مائة ألف يهودي لفلسطين رغماً عن أنف أهلها.. ثم وقفت ثلاث وثلاثون دولة ممن تزعم أنها حاربت «محور الظلم» لتقر تقسيم فلسطين وإعطاء أفضل ما فيها لأخبث شعب على وجه الأرض.. هكذا فعلوا.. على سمع الدنيا وبصرها..

والآن جاء دورنا:

هذا يا أخي بعض ما فعلوه ويفعلونه مما تتألم له أنت بلا شك. وتتألم له الإنسانية بلا ريب.. ومع ذلك فهم لا يستحيون أن يقولوا إن حضارتهم نصرانية وإنسانية!

أيها الأخ الصالح:

لقد حاولت في هذا العرض المفصل لبعض قضايا الساعة الحاضرة أن تعلم مبلغ ما يعانيه العالم اليوم من حكم هؤلاء الأقوياء. وسيعاني أكثر من ذلك ما داموا يحكمون برؤوس لم تعرف إلا الصلف والكبرياء، وبنفوس لم تألف إلا الخداع والتغرير بالبسطاء، وبقلوب لم تعرف الله إلا لتمتص باسمه الدماء وتنشر الهول والفناء، وبأيد لم تعرف إلا السرقة والأخذ حين تكون من الأقوياء، وإلا الذلة والاستجداء حين تكون من الضعفاء، وواجب على المسلمين والنصارى أن يخلِّصوا مسرى محمد ومهد المسيح من براثن اليهود الذين كذبوا رسالتينا وصدوا عن دعوتينا!.. وكما كانوا في الماضي خصماء للحق.. هم اليوم وسطاء للباطل.. إنهم يا أخي ليسوا إلا ركائز للاستعمار، وأداة لوضع الأغلال في أعناق أمتنا.. فاصرخ صرختك في قومك اليعربيين أن يضعوا أيديهم في أيدي إخوانهم المسلمين ليقضوا على الشر قبل استفحاله، وأنا وأنت وكل إنسان شريف معنا نمدهم بالتأييد وندعو لهم بالنصر ونستجلب لهم نصرة ملائكة السماء على شياطين الأرض...



رد أنطوان على الرسالة الأولى

أوروبا لم تفهم الدين على وجهه الصحيح
ولم تتخلَّ عن عقليتها الوثنية
وأخلاقها الجاهلية الأولى

أيها الأخ الكريم!

لشد ما يسرني أن تتخاطب روحانا، وتلتقي من جديد على صعيد الإصلاح، بعد أن أرجف الكاذبون أننا خصمان لا يلتقيان، وما كنا إلا أتباع رسولَي رحمة، وداعيتي هداية، وسنظل كذلك حتى نلتقي في دار الجزاء، وكلانا خالصين من الزيغ والاستغلال، إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين.

يا أخي!

لقد أتاحت لي رسالتك الفرصة أن أفكر من جديد في أمر هؤلاء الغربيين! هؤلاء الذين آمنوا برسالة المسيح ولم يفهموها يوماً من الأيام على حقيقتها الصحيحة، لم يفهموا الرسالة، ولم يفهموا الشريعة، ولم يفهموا حقيقة الآداب، فكانوا عبئاً على عاتق المسيحية تتحمل أوزارهم، ولا يرتضي بين أتباع الأنبياء أقدارهم، أجل! لقد فكرت في أمر هؤلاء الذين يحكمون الدنيا حكماً لا تصعد روح من يحكمونه إلا

وهي تشكو إلى الله بغيهم وعدوانهم! ولا يتنفس واحد منهم إلا بالزفرات الحرّى من فسقهم وضلالهم. ولا تصعد ملائكة الأرض إلى السماء بأعمال أخبث من أعمالهم، ولا يتحدث الملأ إلا عن زعماء سوء كما يتحدثون عن زعمائهم.. ومع ذلك فهم يتعلقون بعيسىٰ ويتمسَّحون باسمه، ويحتفلون بميلاده وأعياده.. ولعمر الله ما رأيت في الأنبياء من آذاه قومه كما آذوا المسيح، ولا من كانوا عبئاً عليه في الدنيا والآخرة كما أصبح أمر هؤلاء.

سوء فهم الغربيين للدين:

شكوت إليَّ أمرهم في الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش في العصور الوسطى؛ وشكوت إلي معاهدهم وإرسالياتهم التبشيرية في العصور الحديثة! وأنت على حق في هذه الشكوى. إنهم لم يفهموا الدين على حقيقته.. لم يفهموه رسالة تعاونٍ وسموٍ وحرية فكرٍ!. بل فهموه رسالة تعصب وحقد وجمود وحجر على الآراء والأفكار!. ولئن فعلوا بأمتك ما فعلوه في الحروب الصليبية ومأساة الأندلس، فلقد فعل بعضهم ببعض ما هو أشد من ذلك نكالاً! ألم تبلغك المذابح الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت؟ ألم يبلغك الاضطهاد الديني الذي اضطر كثيراً منهم أن يهاجروا من أوطانهم هرباً من نقمة إخوانهم في النصرانية كما يزعمون؟ وهل كانت هجرة الأوروبيين إلى أمريكا في أول أمرها إلا فراراً من الاضطهاد الديني؟ ألم يكفر بعضهم بعضاً؟ ثم ألم يحجروا على الفكر

باسم الدين، ويحرقوا العلماء وكتبهم باسم المسيح؟ وهل أنا أقول ذلك؟ وكيف؟ وأنا أعتقد أن عيسى مرسل من الله لئلا تضل العقول وتشقى، فكيف ألغى العقول، وحطم الأقلام، وحجّر على الأفكار والأفهام؟

وأيضاً فلقد شوهوا فكرة الإلّه الحق كما دعا إليها كل نبي! لقد كانوا وثنيين ثم آمنوا برسالة المسيح، فلم يتركوا دينه على صفائه ونقائه وجماله بل ألبسوه ثوباً لم يفصّل له.. عيسىٰ شرقي ولد في بلدة من مدن البحر الأبيض المتوسط، وآمن به الشرقيون وآمنت بي قبائل من اليعربيين، ففهموه وفهموا صفاء دينه، وكانوا به سعداء، وكان بهم فخوراً، ثم آمن به الغربيون فلم ينتقلوا إليه ولكنهم نقلوه إليهم!.. ولم يأخذوا من دينه فطرته وصفاءه، ولكنهم أعطوه من وثنيتهم وماديتهم تعقيدها وجفاءها. وبهذا لم يستفيدوا من دينه كما ينبغي أن يكون.. تعصبوا لعيسى نبي التسامح، واقتتلوا وهو نبي الإخاء، وتناكروا وهو نبي التعارف، وانحطوا إلى حضيض المادة وهو نبي السمو بالروح، وأعرضوا عن العبادة وهو نبي الخضوع لله والتبتل لجلاله...

وسوء فهمهم للأخلاق:

وكما أساءوا فهم الدين أساءوا فهم الأخلاق! أنهم يرقصون ويسكرون ليلة ميلاد المسيح ويزعمون أنهم بذلك يتحببون إليه! فكيف ذلك؟ أكان في حياته سكيراً؟ هل راقص

في حياته النساء؟ هل أباح لهم انحطاط الأخلاق؟ لقد كان داعية فضيلةٍ، ورسول إباءٍ وشممٍ وشهامةٍ وعفةٍ وحياءٍ! فلم يفهموا ذلك عنه، بل ظلوا على عاداتهم في وثنيتهم يرقصون ويسكرون، إنهم لم يهجروا أخلاقهم لأخلاقه، ولكن هجروا أخلاقه لأخلاقهم، ولم يتركوا مبادئهم لمبادئه، ولكن تركوا مبادئ المسيح لمبادئهم، ونهجه في الحياة الشرقية لحياتهم الغربية حتى جعلوه غربياً في كل شيء.. فهل رأيت مثل هؤلاء الأتباع يسيئون إلى قائدهم وهم يتظاهرون له بالإحسان؟.. ويعصونه وهم يتظاهرون له بالإذعان؟..

وانكبابهم على أعتاب المادة:

ولم يكفهم هذا بل أتوا إلى أمر عُرف المسيح به بين الأنبياء جميعاً فاتصفوا بنقيضه ولم يخجلوا أن يزعموا أنهم له من المحبين! المسيح نبي قامت دعوته على ازدراء المادة واطراح المال، والتقرب إلى الله بترك الدنيا وزينتها، فكان هؤلاء الغربيون أشد الناس ولعاً بالمادة، وعبادة للمال، وتكالباً على الدنيا، وانكباباً على زينتها.. وفي سبيل المال وجمع حطام الدنيا، خاضوا غمار الحروب، واستذلوا رقاب الشعوب، وكانوا أكثر أهل الأرض ترفاً وثراءً وإنفاقاً! ولو عملوا بتعاليمه لما كان في الدنيا ذلك المذهب الثوري الذي أفرط في محاربة التملك حين رأى إفراطهم في تقديسه، وبالغ في انتزاع المال من أيديهم حين رأى انتفاخ جيوبهم وأوداجهم

منه. واستهانوا أول الأمر بدعاة ذلك المذهب، ولكنهم أحسوا أخيراً بوطأته، وعضوا بنان الندم على ما فرط منهم في جنب الإنسانية البائسة والجماهير الكادحة.. وأرادوا أن يتداركوا الأمر.. ولكن هيهات! لقد أفلت الأمر من أيديهم وفاتتهم القافلة! فلن يستطيعوا الصمود في وجهه ولو أنفقوا كل ما في خزائنهم من ذهب ودولار.. لن توقفه إلا نفحة من نفحات الروح التي تتمثل بدعوة المسيح الصافية، وعزمة من عزمات القوة المؤمنة التي تتمثل بدعوة النبي الكريم.. لن يقف في وجه الشيوعية الجارفة إلا نصرانية الشرق وإسلام العرب العظيم!.

وقبح استغلالهم للدين!..

وأشد ما آلمني من هؤلاء المارقين! أنهم استغلوا الدين أسوأ استغلال.. استغلوه في محاربة الفكر لبسط السلطان الجائر! واستغلوه في محاربة الإسلام للاستيلاء على خيرات شعوبه! واستغلوه في حماية الطوائف لمنع كلمتها أن تجتمع! واستغلوه في نشر العلم لنقل أقدامهم إلى بلدان الشرق.. واستغلوه في إرساليات التبشير لبسط نفوذهم وتركيز استعمارهم.. وأعجب من هذا أنهم حاربوه في بلدانهم وحافظوا عليه في مستعمراتهم.. ففرنسا التي حاربت الدين في مدارسها، وطردت رجاله من معاهدها. هي فرنسا التي أرسلت للمغرب العربي آلافاً من رجال الدين، وزودتهم بملايين من «الفرنكات» وأقامت لهم في كل قبيلة وفي كل قرية مسلمة

مدرسة ينشرون فيها دينهم.. فلماذا هذا؟ أهو محبة للدين؟ فلماذا حاربوه في بلادهم؟ أم هو محبة لعرب المغرب؟ فلماذا حرموا من هذا الحب أبناءهم وشبابهم؟ ليس إلا الاستعمار اتخذوا له الدين مركباً والنصرانية ستاراً.. ولبئس ما كانوا يفعلون.. ولم يقتصر استغلالهم للدين في أوساط الشعوب التي أرادوا افتراسها فحسب، بل استغلوه ليفترس بعضهم بعضاً! ألم يقل هتلر حين أعلن الحرب على روسيا أنه يعلنها حرباً صليبية ليدافع عن رسالة المسيح؟ وألم يقل تشرشل أكثر من مرة أنه إنما يحارب ألمانيا دفاعاً عن الحضارة النصرانية؟ وألم يقل روزفلت إنه إنما قرر خوض الحرب ليساهم مع بريطانيا في منع انهيار هذه الحضارة النصرانية؟ ألا تراهم أيها الأخ الكريم كلهم يستغلون الدين ليفتك بعضهم ببعض ويستولي بعضهم على بلاد بعض؟ فكيف تظنني راضياً عن انتمائهم للمسيح وأنا أعلم سوء صنيعتهم؟!.

وتفريطهم بمهد المسيح:

ولقد كنت من قبل ألتمس لهم مخرجاً في كل ما صنعوا بالمسيح وبرسالته وأخلاقه وشريعته؛ بالجهالة أحياناً، وبالخطأ في الاجتهاد أحياناً أخرى حتى جاء موقفهم من قضية فلسطين فزال عندي كل شك؛ وأيقنت إيقاناً لا يخالجه ريب أن القوم كاذبون على الله في ادعاء التدين، وكاذبون على المسيح في ادعاء الحب!.

فلسطين.. بلد المسيح التي ولد فيها. ورتع في ربوعها، ونعم بهوائها ومائها وسمائها، واستقبل رسالة الله في أرجائها. وترك في الدنيا كلمة الحق تنبعث من أجوائها.. وخلدت على صخورها وترابها ووديانها وجبالها وسهولها وأشجارها وأحجارها كل كلمة من كلماته.. فلو استنطقت جميعها لرددت على مسامع الدهر بليغ آياته وجليل عظاته!. فلسطين هذه التي اقترن اسمها بميلاد وجهاد وحياة ورسالة المسيح.. فلسطين هذه.. يريد بعض المنتسبين للمسيحية اليوم أن يبيعوها بيع السماح بأرخص ثمن بيع به وطن!.. ولمن يريدون أن يبيعوها لو أنهم أرادوا أن يأخذوها لأنفسهم لكان لهم في ذلك بعض العذر ولعيسىٰ بعض العزاء، ولو أرادوا أن يخلوها من أتباع المسيحية العرب ويسلموا مفاتيحها إلى أتباع محمد الرسول الكريم لما جزعت ولا اضطربت، فلقد استلمها أتباعه من قبل فظلوا حماتها وحراسها مئات السنين يصونون مقدساتها ويحفظون عقائد سكانها!. ولكنهم واخجلتاه.. يريدون أن يبيعوها لليهود الذين كذبوا بالرسالة، واتهموا عيسىٰ في النسب، ومنعوه عن المسير، ووشوا به إلى الظالمين.. يريدون أن يبيعوها لمن لا يزالون ينكرون نبوة عيسىٰ بين الأنبياء! وبنوته بين الأبناء.. يريدون أن يبيعوها لليهود.. لقاء أي شيء؟.. كرسي في واشنطن.. وذهب في لندن.. وفتنة في باريس. فيا لعنة الرب في سمواته على من باعوا مهد نبيهم لأشقى عصاته، كما باعوه في حياته لأشد خصومه ووشاته!.

براءة ومعاداة:

والآن أيها الأخ الكريم وقد أفضيتُ إليك بشكواي من هؤلاء وأطلعتك على حقيقة تدينهم، أبرأ إليك مما صنعوا بأمتك وأعلن لك في هذه المناسبة براءتي منهم جميعاً، فلا دينهم بالذي يرضي، ولا أخلاقهم بالتي تُحمد، ولا سيرتهم بالتي تشكر، فعلامَ أحمل على كتفي وزر انتسابهم.. وسأعلن براءتي منهم إلى نصارى الشرق ليعلموا أنهم موئل الأمل الفسيح في الذود عن حمى المسيح، وأن نصارى الغرب إن باعوا أرض نبيهم بدراهم معدودات؛ فإن نصارى العرب يبذلون في الاحتفاظ بها الدماء الكريمة والمهج الغاليات..

وإن نصارى الغرب إن اتخذوا الدين تجارة للدنيا، فإن نصارى العرب سيتخذونه تجارة للآخرة. وأن أولئك إن بذلوا دينهم لدنياهم، فإن هؤلاء يبذلون دنياهم لدينهم. وأن أولئك إن كشفتهم الأيام عن أعداء في ثوب أصدقاء فإن هؤلاء سيظلون الأبناء الأوفياء..

تجديد للجهاد:

ومَا أحلى دعوتك أيها الصديق الوفي للتعاون على إصلاح ما أفسده أولئك الظالمون.. إنها دعوة كريمة من أخ كريم. وكما مددت إليّ يدك فها أنا ذا أمد إليك يدي.

إن الدنيا تسير إلى الهاوية ولن ينقذها إلا أتباعنا

الصادقون.. ولن ينشلها من وهدتها إلا تعاليمنا الصادقة الصحيحة.

أيها الصديق الوفي:

لقد حارب المسيح الجشع والطمع يوم أدىٰ رسالته، وحارب محمد الظلم والاستبداد يوم كان في الحياة الدنيا، ولقد اجتمع اليوم على هذا العالم طمع اليهود مع استبداد الغربيين، فلنسر معاً إلى الميدان لنحارب جبهات الفساد متكاتفين متحدين.. أنا وأنت أخوان لا يفترقان؟ فهل يفهم هذا أتباعك، والعرب من أتباعي؟

سأوصل إليهم صوتي وسأرسل إليهم ندائي.. فلنبدأ المسير! ولنا من الله أعز معين وأقوى نصير..

أنطوان



نداء من أنطوان
إلى نصارى العرب

لقد باع الغرب مهد المسيح وتراثه إلى ألد أعدائه، فاحفظوا الذمار وكونوا أوفياء:

يا أبنائي العرب الأوفياء!

لقد آمن بالمسيح أجدادكم من الغساسنة والمناذرة فأنقذهم من وثنيتهم، ورفعهم من وهدتهم، وأضاف إلى أخلاقهم العربية النبيلة سمواً، وإلى عاداتهم البدوية حضارة، وإلى تفكيرهم الصافي عمقاً واستنارة، وبذلك كانوا أنبل من آمن برسالته، وأصدق من اتبع دعوته، وأوفى من حافظ على تراثه وشريعته فلما جاءتهم دعوة الإسلام يحملها تلاميذ محمد الأوفياء.. لم يروا فيهم أعداء ولا في شريعتهم كفراً وإلحاداً، ولا في نبيهم عدواً وخصماً؛ بل انضموا إلى كتائبهم يحاربون الروم في بلاد الروم، والفرس في مملكة الفرس، حتى انتصر الإيمان الجديد يحمل لواءه العرب، على العقيدة الملوثة يحميها هراطقة الروم وأكاسرة العجم. واستمرت راية الإسلام تخفق فوق رؤوسكم ورؤوس إخوانكم المسلمين، لم يخفر لكم ذمام، ولم ينقض لكم

عهد ولم تكرهوا على عقيدة ولم تنقصوا في مال ولا متاع بهذا التعاون الذي لا يقف في سبيله اختلاف عقيدة، وهذا التآزر الذي لا يضعفه تباين فكرة، وبذلك أثبتم وأثبت إخوانكم أنكم فهمتم رسالة الأديان كما أرادها الله، وكما بشر الأنبياء رسالة بناء لا تهديم، وتناصر لا تقاطع وطمأنينة لا فساد. ولأول مرة في الدنيا أثبت تاريخ الحضارات أن دينين يتعاونان على إقامة صرح الإنسانية الفاضلة في عصر كان للدين فيه سلطان على الملوك، وأثر في بناء الدول، وطابع في أعمال الأفراد.. وما كان ذلك لولا أنكم وإخوانكم المسلمين أخلصتم قلوبكم للحق، ونزهتم نفوسكم عن التعصب، وطهرتم سيوفكم عن الدماء يسفكها إخوة اتحدوا في اللغة والوطن واختلفوا في العقيدة والكتاب..

● واستمر تعاونكم يثمر ثمرته، حتى غلبكم الغرب على أوطانكم، وغرّكم باسم الصليب والإنجيل فألقى الدسائس بين صفوفكم، وأشاع العداوة في أوطانكم، وفرق بينكم وبين إخوتكم، فاستجاب له فريق منكم وكانوا أول المتألبين على أخوانهم المسلمين، ولكنهم كانوا أول الهالكين بدسائس أولئك الغربيين.. واتضح لكم مع الزمن أن هؤلاء المتغلبين عليكم لا يعرفون ديناً ولا إنجيلاً ولا مسيحاً، وإنما يعرفون استعماراً واستغلالاً واستعلاءً واحتلالاً. لقد أرادوا أن يجذبوكم إليهم باسم المسيح

ويبعدوكم عن إخوانكم المسلمين باسم شريعته، ويدخلوا في قلوبكم كره محمد وشريعته.. فهل كانوا أوفياء لرسالته؟ وهل كانوا أبر لكم من محمد وصحابته وأتباعه؟ ألم تشترطوا على خليفتهم عمر بن الخطاب حين فتح بيت المقدس أن لا يساكنكم فيها يهودي فوفى بعهده، ووفى المسلمون بهذا العهد من بعده؟ ألم يقرر محمد رسالتي ويحرم على أتباعه انتقاص قدري واتهامي بمثل ما اتهمني به اليهود؟ ألم يقرر طهارة مريم البتول وقد كان اليهود يتهمونها؟ ألم يقرر صدق رسالة المسيح وقد كان اليهود وما زالوا ينكرونها؟ ألم يحرم إيذاءكم والاعتداء على عقائدكم وكنائسكم وآدابكم؟ بل ألم يوصِ بكم خيراً؟ ألم يقرر القرآن أنكم أقرب الناس إلى المسلمين؟ ألم تكن آخر كلمات عمر بن الخطاب وهو على فراش الموت أن أوصى الخليفة من بعده بكم لأنكم ذمة الله ورسوله؟ هذا هو موقف إخوانكم المسلمين منكم وهم يخالفونكم في العقيدة فهل وقف الغربيون منكم مثل هذا وهم يزعمون أنهم إخوانكم في الدين؟.. ألم ينزلوا بكم العذاب كما أنزلوه بالمسلمين؟ ألم يخربوا دياركم كما خربوا ديار المسلمين؟ هل أنجوكم من كل بلاء صبوه على رؤوس المسلمين؟ وأخيراً ألم يسلِّموا مهد عيسىٰ وهو مهوى أفئدتكم إلى أعدائي وأعدائكم من اليهود بينما حافظ عليه المسلمون أربعة عشر قرناً؟..

يا أبنائي!

لقد خدعكم الفرنسيون باسم الدين وها هم يبيعونكم آخر الأمر! يبيعون فلسطين وبلاد العرب لليهود يقيمون دولتهم على البغي والدس والتفرقة والفساد، فهل رأيتم أسوأ منهم عملاً وأخبث طوية؟ وهل فيكم من لا يزال حتى الآن يحن إليهم لأنهم نصارى ولأنهم إنجيليون؟.. أعلن للعالم كله بغيهم وخروجهم على شريعته واستهتارهم بكرامته، وبيعهم مهده ووطنه وبلاده لليهود بأصوات معدودات أيام الانتخابات، ودولارات مكدسة تفرج عنهم الأزمات! ليسوا من المسيح ولا من شريعته ولم يعرفوا الله يوماً معرفة تنجيهم من خزي الدنيا ونار الآخرة!.

يا أبنائي!

هذه فرصة لأضع فيكم أملي، وأرسل إلى آذانكم ندائي.. أن مهد المسيح في خطر، وأن رسالتي في خطر، أن أديان الله الصحيحة كلها في خطر، وكما تقدم المسلمون في القرون الوسطى يردون برابرة الصليبيين عن تدنيس الأرض المقدسة، لقد وقفوا اليوم أيضاً يذودون عن المسجد الأقصى، وعن مسرى محمد وعن مهد المسيح.. أتساءل في نفسي أين شهداؤكم؟ وأين أبطالكم؟ وأين دماؤكم تجري جنباً إلى جنب مع دماء أبطال المسلمين تدفعون عن وطن المسيح عدوان العادين وبغي الظالمين؟ حذار يا أبنائي أن يستأثر المسلمون

بشرف الجهاد في معركة الخلود الدائرة في الأرض المقدسة لا.. لا تدعوهم يسبقونكم إلى المجد، ويخلفونكم وراء ظهورهم في صراع الأبطال.. سيروا يداً واحدة؛ أنشدوا نشيداً واحداً، اتبعوا قائداً واحداً، انتظموا في كتيبة واحدة. إن محمداً والمسيح يشهدان هذا الصراع الرهيب، ويباركان هؤلاء الضحايا المضرجين، ويستمطران لعنات الله وملائكته على الباغين المسرفين، فأروني يدكم مع أيدي إخوانكم المسلمين، سابقوهم في التبرع، وسابقوهم في الجهاد، وسابقوهم في ميادين النار، وسابقوهم في حمل السلاح.. إنها معركة بين الإيمان والكفر، وليس حظ إخوانكم من المسلمين أوفر من حظكم فيها.. وإنه صراع بين الشرق والغرب، وليس ملككم لهذا الوطن أقل نصيباً من ملك إخوانكم له.. وإنه بدء فجر جديد يتعاون فيه المؤمنون الصادقون، فاكفروا بالغرب وآمنوا بي، وانصرفوا عن عواصم أوروبا وأمريكا وروسيا واتجهوا إلى بيت المقدس.. ليكن هواكم مع أتباع محمد! لقد دقت ساعة الخلاص من استعمار الأقوياء وبغي الدخلاء.. وأن أكاليل الغار مهيئة في السماء لمن يتقدمون الصفوف إلى ميادين البلاء. فيا أتباع المسيح خذوا معكم كلمة الإنجيل وسيف القرآن، وضعوا في أعينكم نور عيسى وفي قلوبكم حب محمد..

يا نصارى العرب.. لقد شهد التاريخ كتائبكم تحت راية الإسلام فسجلها لكم مآثر خالدات، فهل تشهد الدنيا اليوم

كتائبكم تحمل لواء الجهاد مع كتائب الإسلام فتطأون بأقدامكم هامة الغرب؛ وتطردون من بلادكم عبدة العجل ومزامير الشيطان؟!.

إني أنتظر جوابكم! إني مرهف سمعي لرصاص بنادقكم، إني مهيىء قلمي لتسجيل تبرعاتكم.. إني أنتظر مع المنتظرين فهل تبطئون في الرد؟ وهل تتوقفون عن الإجابة؟

أنطوان



ويستمر التواصل
تعليقاً على الرسالتين السابقتين
كتب النائب الدمشقي المسيحي «حبيب كحالة»
التعليق الأول:

إذا كانت محبة الأوطان إسلاماً فنحن مسلمون في نصرانيتنا، نصارى في عروبتنا

إننا نحن نصارى العرب، الذين نعمل بمبادئ وتعاليم المسيح، لنفخر على نصارى الغرب بأن هذه المبادىء وهذه التعاليم بما فيها من المعاني النفسانية السامية قد جاءت ملائمة لطبيعة العرب، وصفاء قلوبهم وطيب إرادتهم، فازدهرت بهم ونمت، بينما لم تكن ملائمة لطبيعة الغرب ولاستعداده، فأخرجها من معناها السامي وطبيعتها السمحة الجميلة، وأسبغ عليها الطمع والكفاح وحب الأثرة لاستعداده، وأفسدها بروحه ومطامعه، وهكذا إذا كانت هذه التعاليم قد بعثت في صدورنا نحن نصارى العرب حية نامية لم تفسدها الشوائب فلأنَّ تربتنا وأرومتنا تربة صالحة ينمو فيها كل مبدأ سام وكل معنى جميل ويموت فيها كل فاسد وأثيم.

لقد دعا السيد المسيح إلى الزهد في الحياة، وبالمحبة والعفو والمغفرة، فكنا من أتباعه نعمل بموجبها ونحقق مراميها

وأهدافها، وكنا دائماً مخلصين لأولي الأمر فينا، محبين لأوطاننا أوفياء لمواطنينا، بينما طغت على نصارى الغرب طبيعتهم القاسية، فأخذوا باسم المسيح يستعمرون الضعيف وهو يقول بمساعدته، وأخذوا باسم المسيح يطلبون الثراء وهو يقول بالزهد به، وأخذوا باسم المسيح يسفكون الدماء ويثيرون الحروب وهو يقول بالمحبة والسلام، وهذا هو الفرق بين مسيحية العرب ومسيحية الغرب، بين أتباع المسيح في بلاد العرب وأتباعه عند بقية الأمم والشعوب.

إن هذه الحياة المادية قد طغت على الخطة التي رسمها السيد المسيح للبشر فلم تنفع فيها صيحات المصلحين المطالبين بإعادة الحياة الروحية التي أضاعوها ووجوب الرجوع إلى ما قبل به ودعا إليه المسيح من مبادئ سامية وتعاليم روحانية لأن غريزتهم صلبة لم تنبث فيها تعاليمه كما أراد، بل تكيفت حسب ما فطروا عليه وتعودوه في حياتهم الوضيعة المادية من حب الأثرة والطمع والكفاح.

وكما لاقت تعاليم المسيح ومبادؤه تربة صالحة في صدور أجدادنا العرب فنمت وازدهرت، هكذا لاقت تعاليم محمد قلوب بني يعرب، ولما كانت هذه المبادىء والتعاليم واحدة بجوهرها كلها تقول بالسلام والمحبة والحق والعدل وعمل الخير والابتعاد عن الشر، فقد تعانق في هذه البلاد العربية المسلم الحقيقي والمسيحي الحقيقي، وتعارفوا وتفاهموا ما دامت المبادئ واحدة في العدل والحرية وحب الخير والبعد عن الشر.

فنحن العرب سواء أكنا نصارى أم مسلمين أحب بعضنا

بعضاً كما أمر الأنبياء؛ وتعاونّا معاً على مساعدة الضعيف وعمل الخير والابتعاد عن المنكر.

ولما كنا هكذا بالحقيقة فقد وقفنا في التاريخ صفّاً واحداً في وجه كل مغتصب ولو حاول أن يخدعنا بأنه يحمل اسم المسيح، فقد وقفنا مع إخواننا المسلمين في وجه القائد الروماني هرقل وهو الذي استرد الصليب من بلاد فارس إلى بيت المقدس، ووقفنا أيضاً مع إخواننا المسلمين صفاً واحداً في وجه الصليبيين الذين جاؤوا إلى هذه البلاد يحملون الصليب بحجة إنقاذ القبر المقدس، وبالحقيقة فإنما جاؤوا للغلبة والاستعمار.

لقد حاول الكثيرون باسم المسيح أن يعملوا في تفرقتنا وإثارة البغضاء بيننا، ولكننا نحن النصارى ما كنا يوماً بمخدوعين بادعاءاتهم ولا غافلين عن الغاية التي يرمون إليها من هذه التفرقة فلم تؤثر فينا أساليبهم، ولم تثمر مساعيهم، ففشلوا وخذلوا لأننا نعلم أن سبيلك رحمة ومحبة للعالمين وإلفة وسلام فلا يقول بالتفرقة ولا التعصب وإنما قال: أحب قريبك كما تحب نفسك؛ وهذا ما لا يتفق مع السياسة التي تبنوها والخطة التي رسموها.

إننا نحن النصارى العرب إذا كنا نعيش بأمن وسلام وطمأنينة مع إخواننا المسلمين فلأننا نحن نعمل بموجب ما جاء في الإنجيل؛ ولأن المسلمين يعملون بما جاء في القرآن.

وهذان الكتابان الكريمان قد قالا بالأُلفة والوئام والمحبة والسلام، وهكذا فالمسلم الذي يضمر العداء لأخيه المسيحي

لا يعمل بمبادىء محمد، كما أن المسيحي الذي يضمر العداء لأخيه المسلم إنما هو يخالف تعاليم المسيح في الإنجيل.

على أني أنا كواحد من أتباع نصارى العرب أردد ما كنت قد قلته في مناسبات عديدة أننا وطنيون محبون لبلادنا التي نشأنا فيها كما أمرتنا، وإذا كانت محبة الأوطان في بلاد العرب معناها الإسلامية فنحن مسلمون في نصرانيتنا، نصارى في عروبتنا.

إن فلسطين، هذه البلاد المقدسة التي نشأ فيها وترعرع ونشر منها السيد المسيح مبادئه وتعاليمه مهددة بالخصوم الذين أرادوا أن يقضوا على تلك المبادىء السامية بالقضاء عليه فعذبوه وآلموه، إن هذه البلاد مهددة بخصومك اليهود هؤلاء، ومن الغريب أن يجدوا من نصارى الغرب مؤيدين لهم ومناصرين، وأما نحن نصارى العرب الذين ضممنا هذه المبادىء في صدورنا إلى الأخلاق العربية المتأصلة فقد وقفنا في وجه الطامعين لأننا نصارى بالفعل وليس بالاسم، وسنعمل سوية للذود عن هذه الأراضي المقدسة ليس فقط لأن فيها مهد المسيح المقدس وذكرياته الخالدة؛ بل لأن فيها المسجد الأقصى الذي أسرى إليه زميله محمد ﷺ.

وما دام هذا الإيمان في قلوبنا فلا يستطيع أحد مهما كان أن يمس هذا المهد ولا أن يستولي على هذا المسجد، ونحن أصحاب إيمان لأننا نحب أوطاننا، ومحبة الأوطان من الإيمان.

نائب دمشق:

حبيب كحالة

التعليق الثاني:

لقد طالعنا بسرور كبير الرسائل الكريمة الجارية بينكما واغتبطنا لهذا الإخاء النبيل والتقارب الجميل بين هاديين عظيمين حملا رسالة السماء إلى الأرض وحاولا أن يرفعا الأرض إلى السماء كلٌّ بطريقته الفذة حسب ظروف الناس واستعداد الناس للفهم والقبول.

والحق أن الوقت قد آن ليستجيب الشرق المسيحي المسلم إلى النداء القديم فيعود هو ويعيد العالم معه إلى الله. لأن الغرب الذي تزعَّم الدنيا في الزمن الأخير وقرر مصير الناس قد فشل في الزعامة وأجرم في تقرير المصير، فما حقق عدلاً ولا بسط في الأرض سلاماً.

يدعي الغربيون أنهم أقاموا حضارتهم على مبادئ المسيح الرفيعة لكن دولهم لا تتقي في سياستها الله ولا تراعي في مسلكها قواعد الحق.

دول الغرب وثنية جاهلية طاغية لا قلب لها ولا ضمير فعسى ألا يخيب الأمل بالعرب والشرق القديم، والعرب هم الأمة الوحيدة في التاريخ التي جمعت بين السياسة والأخلاق واشترطت طاعة الله في الانقياد للسلطان.

إن الساسة في الغرب يقرأون كتاب الأمير ويعبدون القوة والمال ويأخذون عن مكيافلي أساليب المكر والدهاء، ونحن نقرأ الإنجيل الشريف والقرآن الكريم ونعبد الله ونلتمس مكارم

الأخلاق ونعلم أن الحل الأخير لمشكلات العالم هو الحل القديم، تكامل الشخصية الإنسانية وتساميها، وإنما تتكامل الشخصية الإنسانية وتتسامى في أجواء روحية عرفتها بطحاء مكة وقرى الجليل.

وهناك أسباب أخرى تدعونا إلى الترحيب بالتعاون الوثيق بينكما؛ أن العرب من أتباع السيد المسيح والعرب من أتباع محمد يؤلفون أمة واحدة بين أمم الأرض ويستهدفون إنشاء دولة عربية جامعة كالتي كانت لهم في دمشق وبغداد، فإذا ما ساهمت المسيحية وساهم الإسلام في وضع الأسس الروحية لتلك الدولة جاءت دولة العرب أقرب إلى الفضيلة والكمال من سائر دول الأرض وامتازت بروح التسامح والإخاء بين المذاهب المختلفة والآراء.

وإنّا لتربطنا بالمسيح العقيدة والكتاب وإنّا لتربطنا بمحمد القومية والأنساب، ولمحمد صفتان بالنسبة إلى النصارى من العرب: فهو نبي كريم وهو بطل قومي جعل من العرب أمة بعد أن كانوا قبائل متناثرة وبيوتاً متنافرة وشيعاً وأحزاباً، وألقى في قلوب قومه إيماناً رفيعاً وحملهم رسالة عظيمة فخرجوا من الجزيرة النائية إلى مسرح الكون وفتحوا الأمصار وسيَّروا الأقدار وشرحوا صدور الناس لرسالة العرب، وتعالت على مآذن الشرق تلك الأغنية العربية الخالدة: «الله أكبر» وأنشأوا لنا في الأرض دولة عزيزة عرباء وأجروا لنا في الدهر مواكب الأبناء.

أن محمداً النبي أتم عمل الأنبياء وأضاف إلى حزب الله ملايين من عباد الله وهذا ما نقدره كمسيحيين.

وأن محمداً العربي أنشأ المجد العربي إنشاءً، وكوَّن أمة النبل تكويناً، ووضع الأساس لحضارة عربية سمحاء. وهذا ما نعتز به كعرب.

ولا يخفى على أحد أن الأرض موزعة اليوم بين أقوام لا بين أديان، فكل أمة من الناس لها دولة وسلطان أو تطمح أن يكون لها دولة وسلطان، وأن اليهود وقد انقرضوا كأمة منذ ألفي سنة وفقدوا ملك سليمان. وأضاعوا دينهم وما علَّم موسى، وأصبحوا تجاراً ومغامرين يهيمون في الأرض.. أنهم تنادوا من أقطار الأرض جميعاً وتداعوا من زوايا المصارف والأسواق والخانات وابتدعوا قومية صهيونية ليدخلوا باسمها فلسطين ويقيموا في الأرض المقدسة مصنعاً ومتجراً وملهى وأن الحرب الدائرة رحاها الآن في حيفا والقدس وبئر السبع هي حرب قومية بين بني إسرائيل وبين بني عدنان وقحطان.

وأن النصارى من العرب لا يختلفون في شيء عن العرب المسلمين تجاه هذا الصراع القومي الرهيب. وإذا كان للدين دخل في هذا الأمر فالمسيحيون ليسوا أقل نقمة على اليهود من المسلمين. وإن لنا عند اليهود لثأراً قديماً. ألم يضطهد الكتبة والفريسيون السيد المسيح ويتنكروا لدعوته؟ ألم يسلطوا عليه الأنذال والأدنياء في الطرقات؟ ونحن الآن ننتسب

إلى الناصرة بلد المسيح الطيب الأمين في قلب فلسطين؟

ثم إننا نعلم حقيقة أمر اليهود وما يضمرون. لقد جاء في كتبهم: «وكان بعد موت موسى عبد الرب أن الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلاً: «كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته كما كلمت موسى. من البرية ولبنان إلى النهر الكبير نهر الفرات. جميع أرض الحثيين وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم».

إن اليهود ليحلمون بأرض الميعاد وأرض الميعاد على ما جاء في كتبهم تضم مصر وفلسطين وشرقي الأردن والعراق وسوريا ولبنان: «لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات».

ونعلم أيضاً ما يبيتون لشعوب تلك الأرض: «أما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلٓهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة».

وفي التلمود: «باستطاعتك، بل من واجبك أن تقتل أفضل المسيحيين».

من واجب نصارى العرب إذن ومن مصلحتهم الحقيقية أيضاً أن يطهروا الأرض تطهيراً من أثر اليهود. وكما حمل السوط السيد المسيح وطرد اليهود المرابين من الهيكل هكذا يحمل العرب السلاح ويطردون أحفاد أولئك المرابين من وادي الأردن.

تسألنا أيها السيد عن أبطالنا وشهدائنا وضحايانا وعن الدماء تجري والأموال تبذل، وتدعونا إلى التنافس في التضحيات والتسابق إلى المكرمات مع المسلمين، لقد والله كدنا ننسى أن في الغرب مسلمين ونصارى. أن ثورة **١٩٣٦** شهدت ضحايا النصارى من الناصرة وغزة ويافا كما شهدت ضحايا المسلمين. ولم يحص الناس يومئذ عدد الأبطال والشهداء من أولئك وهؤلاء، وخير لنا إلا نحصي لأن في ذلك إقراراً بوجود طائفتين من العرب يكفينا أن يقول المؤرخ غداً:

«خاض العرب المعركة الفاصلة مع اليهود وأصيب منهم من أصيب وقضى منهم من قضى وانتصر العرب آخر الأمر».

سنمر بالنار جميعاً أيها السيد ونخرج بإذن الله أنقياء كالذهب وننشىء دولة فاضلة عرباء تتسع لروحانية المسيحية وعبقرية الإسلام.

إنا لنؤمن بالمسيح وإنا لنؤمن بقومنا العرب، ونتطلع تارة إلى السماء مستمدين النور والمعونة من فوق ونتطلع أخرى إلى بيت المقدس والبيت العتيق والقاهرة وجامعة العرب.

وسلام عليك أيها السيد ورعى الله أتباع عيسىٰ ومحمد عليهما السلام من أمة العرب.

دمشق في العاشر من كانون الثاني.

أديب نصور



الرسالة الأولى: للسيد أنطوان

إنه ليسرني أن تبلغني الحفاوة بميلاد المسيح، والعناية بالذكرى التي نعمت بها الإنسانية فقطفت من ثمارها في بعض عصورها أطيب الثمرات، وأنها الحفارة وتبرز للجماهير احترامكما للذكريات الدينية، ووفائكما لذوي الفضل العميم على الحضارات والمدنيات لا جرم أنكما بذلك تستحقان مني جميل التقدير وعظيم المحبة.

• ولكن خبروني أيها الناس:

لماذا تحتفلون حقاً بميلاد المسيح مع ملايين المحتفلين؟ أهي عادة درجتما عليها فلم ترضيا لأنفسكما إلا أن تكونا من المحافظين؟ أم تقرباً إلى جمهور شعبيكما لتضمنا لكما دوام الرئاسة واستمرار نعمة الجاه والسلطان؟ أم إيمان منكما بفضل المسيح على الإنسانية وفضل تعاليمه على الأقوام والشعوب فاحتفلتما بهذه الليلة لتذكرا الناس بمبادئي وتحملاهم على الانتفاع برسالتي، والعودة إلى تعاليمي؟..

• لماذا تحتفلان أيها السيدان؟ لئن كنتما تفعلانها عادة فما أقبحها من محافظة على العادة، ومقاتلة للعبادة؟ ولئن كنتما تفعلانها تقرباً إلى شعبيكما فما أقبحه من استغلال للدين تضمنا به النفوذ بين المتدينين؟ ألم يكف آباءكم وأجدادكم الصليبيين

أنهم ارتكبوا من الجرائم باسم المسيح ما لا أزال أذكره مع التاريخ بأسى وألم، وما كانوا إلا غزاة نفعيين يسلبون الدينار وباسم محاربة الكفار! ويخضبون الأرض بالدماء الطاهرة من كل قتيل وجريح، باسم المسيحية والمسيح!.. وإن كنتما تحتفلان بميلاده إيماناً بتعاليمه، وتذكيراً للناس بهدايته، فأين أنتما من تعاليمه وهدايته؟.. ألم تخوضا الحروب وما جاء المسيح إلا للسلام؟ ألم تعملا على خراب المدن ويتم الأطفال وثكل النساء وما جئت إلا للبر باليتامى والعطف على الأرامل، وحقن الدماء؟ ألم تظلما ملايين من الشعوب وما تزالان تحكمانها باسم العدالة والتهذيب، وما جئت إلا لتحرير الأرقاء وإنقاذ الضعفاء؟ ألم ترقصا على أشلاء الإنسانية المعذبة في مستعمرات دولتيكما، وما جئت إلا لترقص الإنسانية على أشلاء الظلم والجبروت؟ وأخيراً أيها الرئيسان! ألم تسلِّما الأرض التي ولد المسيح فيها ودرج عليها ونشر منها رسالته التي تزعمان أنكما من المؤمنين بها. ألم تسلِّما فلسطين إلى من حاربوه في حياته وكانوا ولا يزالون ألد أعداء رسالته؟ لماذا هذا أيها الرئيسان؟!. أمحبة له؟ ومتى كانت علاقة الحب أن يكرم المحب ألد أعداء محبوبه؟ أم إيماناً برسالته؟ ومتى كان الإيمان بها تسليم مقدساتها وتراثها إلى أيدي أشد خصومها ومحاربيها؟

- أيها الرئيسان! لئن كنتما تظنان القدرة على خداع الشعوب مدة من الزمن كافية لإيصالكما إلى شهوة الغلبة

والسلطان! فثقا أن خداعكما لن ينطلي على المسيح! إني لكما بالمرصاد! لقد خجلت من جرائمكما باسم الإنسانية وأنتما تنسبان إليه، فهلا خجلتما من كذب الادعاء عليه في الليلة التي تلتفت فيها الإنسانية إليه تستصرخ من وطأة أقدامكما، وجفوة طباعكما، وتحجر قلبيكما؟

• أني لأسمع الآن ما لا تسمعان! إنكما تسمعان في هذه الليلة رنين الكؤوس، وقرع الناقوس، ووقع الأنغام على رقصات الأجسام؛ ودوران الرؤوس! أما أنا فإني أسمع أنين الجرحى، وبكاء الأمهات! إني أسمع أزيز الرصاص في الأرض المقدسة! إني لأسمع.. أسمع دعاء المؤمنين عليكما وعلى شعبيكما بالخراب والدمار!.. ها هي اللعنات تصعد من شفاه ما نطقت إلا بتوحيد الله وكلمات الخير والحق..

هنيئاً لكما أيها الرئيسان بعزة السلطان الجائر في الأرض! وذلة العبودية الفاجرة في السماء!



الرسالة الثانية

• بالأمس احتفلت دنيا المسيحية بذكرى مولد الميمون، وشاركتهم في السرور بهذه الذكرى دنيا المسلمين، إذ لستَ في نظرهم إلا نبياً كريماً أديت رسالتك في وسط أعمت المادة بصره وبصيرته، وكنتَ ما حييت مبشراً برسالة الروح، حاملاً دعوة الزهد، داعياً إلى الحب والعبادة والتقوى، فلا جرم أن كان مولدك ميموناً على الإنسانية، عظيم الأثر في تلطيف شرها وتخفيف ويلاتها.

• ولعلك رأيت من احتفلوا بمولدك كانوا أنماطاً مختلفة من الشعوب والأمم وقد يظن بعض من لا يعلم حقيقة الواقع في دنيا هؤلاء أنهم وقد آمنوا جميعاً برسالتك شملتهم نعمة السلام، وأظلتهم راية الإخاء، وتحقيق ما أنشدوه جميعاً «المجد لله في العلى، وعلى الأرض السلام، وفي الناس المسرة»، ولكنك تعلم أيها السيد الكريم أن مدافع الحرب العالمية الثانية ما تزال ترن في الآذان لقرب العهد بها، وأن مشاهد الخراب والدمار ما تزال قائمة في كل مدينة شهدت أهوالها، وأن آلاف العائلات والنساء والأطفال ما تزال تشكوا الثكل واليتم والعوز والفاقة! كل ذلك إنما كان من صنع هؤلاء الذين احتفلوا في الأمس بمولدك، وأضاؤوا لك الشموع في

الشوارع والمعابد، وترنموا بقولهم المعتاد: «المجد لله في العلى، وعلى الأرض السلام».

• ولسنا نريد أيها السيد الكريم أن نذكرك بفواجع حروبهم بعضهم مع بعض، ولكنا نريد أن نذكر لك أن هؤلاء الذين ترنموا في الأمس باسمك، واحتفلوا بمولدك، وقدموا الأدلة على تمسكهم بمحبتك، هم الذين هدموا الشام، واحتلوا مصر والعراق، وأحالوا المرابع الخضراء في المغرب الأقصى بلاقع جرداء تنعق فوق أطلالها الغربان، وتبكي على رجالها البواكي، ويتفرق أبطالها تحت كل سماء! هم الذين قتلوا الآمنين، وأبعدوا المخلصين، وسجنوا العاملين وانتهكوا أعراض الحرائر، وسلبوا أموال الشعوب، وتركوا في كل مكان نزلوا فيه آثاراً ناطقة بجرائمهم ووحشيتهم وغدرهم وخستهم، هم الذين فعلوا هذا كله وأنت الذي قلت لهم: «أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم» فما كان منهم إلا أن أغرقوا الأرض بالدماء، وملؤوها بالفساد، وأذكوا بين الشعوب نيران العداوة والبغضاء، ومع ذلك فقد كانوا بالأمس يرددون وهم يسكرون ويرقصون «المجد لله في العلى، وعلى الأرض السلام!..».

• وفلسطين أيها المسيح! مهدك الذي ولدت فيه! ووطنك الذي درجت عليه! ومسراك الذي عرجت منه! كيف حافظ عليها أتباعك «أبناء العم جون بول وأبناء العم سام»؟! أتدري أيها السيد المسيح أن هذه البلاد التي أعطى عمر بن الخطاب عهداً على نفسه أن لا يدخلها يهودي أبداً استجابة

لرغبة سكانها من أتباعك يومئذ، وظلت تحت أيدي العرب أربعة عشر قرناً محفوظة من أن يدنسها أعداؤك الذين كذبوك واضطهدوك وطاردوك! هذه البلاد يسلمها اليوم إليهم غنيمة باردة من احتفلوا في الأمس بمولدك، وزعموا أنهم يمجدون ذكراك! ومع ذلك فلا يخجلون أن يقولوا في يوم ميلادك «المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام».

• أي سلام هذا الذي جلبوه إلى فلسطين وبلاد العرب؟ أهو السلام الذي هدم شوارع يافا ومساجدها وبيوتها في دقائق معدودات؟ أهو السلام الذي أودع أربعين ألفاً من أبناء فلسطين في غياهب السجون والمعتقلات؟! أهو السلام الذي أشعل النار في جبال فلسطين فغيب آلافاً من شهدائها في القبور، كل ذنبهم أنهم غضبوا لكرامتهم، ودافعوا عن أوطانهم، ومنعوا أن يدخل وطن المسيح من كذب برسالة المسيح وعاداه؟! أي سلام هذا الذي يأتي من حشر مئات الألوف من شذاذ الدنيا في وطن صغير له أهله ووراثه وحماته، ثم يقولون لهؤلاء الغرباء: أنتم أصحاب الوطن! ويقولون لأصحاب الوطن: أنتم غرباء عنه!.. سلام!.. أهو هذا السلام الذي تنشره عصابات «شتيرن» و «أرغون» أم هو ذلك السلام الذي شهدنا آثاره سنة **١٩٣٥** و **١٩٣٨** وما بينهما، وسنشهد آثاره يوم ينفجر صبر العرب فتندلع الشرارة الأولى وتشاهد الإنسانية مجزرة من أشد مجازر التاريخ هولاً وأفظعها آثاراً؟.. ومع ذلك فهم اليوم يتفننون بالسلام، ويترنمون في ليلة الميلاد «المجد لله في العلى، وعلى الأرض السلام!..».

• لقد كانت دعوتك أيها السيد الكريم حرباً على أخلاق اليهود وماديتهم وكيدهم فكان من أتباعك في «لندن وواشنطن» أن مدوا لهؤلاء اليهود أيديهم، وسلموا بلادك إليهم، ولم يحققوا من كل تعاليمك إلا آية واحدة! حققوا مع اليهود فقط قولك: «من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الخد الأيسر» فقتل اليهود وزراءهم، ونسفوا دورهم، واغتالوا ضباطهم، وتحدوا أحكامهم، ومع ذلك فما يزالون يبتسمون لهم ويدعونهم للتفاهم معهم وتسليمهم فلسطين! هذه هي المرة الأولى التي يتبعون فيها ظاهر تعاليمك منذ اتبعوك حتى اليوم، ولكنهم مع العرب يكفرون بهذه الآية وقد جعلوها «من حاول أن يضربك دفاعاً عن نفسه فاخرب داره وشتت شمله، واسلب ماله، واهتك عرضه، وأوقع به أفظع آيات النكال لتظل هيبتك محفوظة، وكرامتك مصونة»!...

هكذا يا نبي الله فعلوا بنا ونحن أحبابك، وفعلوا باليهود وهم أعداؤك، ومع ذلك فلقد احتفوا بمولدك في الأمس، وسكروا وعربدوا ورقصوا وأنشدوا: «المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام».

يا نبي السلام والحب!

• كما ساقوا في القرون الوسطى إلى هذه الديار الجيوش باسمك تنهب وتقتل وتخرب، فلقد ساقوا إليها في القرن العشرين الجموع من أعدائك لينهبوا ويقتلوا ويخربوا، فأساؤوا

إليك مرتين! وأهانوا كرامة بلادك في غزوتين! وأراقوا الدم باسمك في محاولتين! وكما رددناهم في الحروب الأولى مهزومين خاسئين فحفظنا مهدك وصُنَّا أرضك، فسنردهم نحن اليوم في هذه الحرب الثانية، وسنبقى نحن العرب مسلمين ومسيحيين الحفَّاظ الأوفياء لمبادئك والحراس الأمناء لبلادك! وسيعمل أحفادنا لتطهير هذه البلاد من رجس أعدائك حتى تعلم أينا أبر بذكراك، وأوفى لعهدك. ويومئذٍ يشهد التاريخ أننا نحن لا أولئك الغربيون حققنا بدمائنا معنى هذه الكلمات «المجد لله في العلى، وعلى الأرض السلام، وفي الناس المسرة».

بيروت ٢٥ كانون الأول ١٩٤٦.

مصطفى السباعي



في ذكرى ميلادين: ميلاد عيسى وميلاد الرسول

في مثل هذا اليوم من الأسبوع الماضي احتفلنا واحتفل العالم كله بذكرى ولادة السيد المسيح عليه الصلاة والسلام.

وفي هذا اليوم نحتفل ويحتفل العالم الإسلامي كله بذكرى ولادة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام.

ولعلها من رموز القدر العجيبة أن يجتمع الميلادان في أسبوع واحد، والذكريتان في يوم واحد، لنتذكر دروس هاتين الذكريتين الخالدتين في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى العظات، نرأب بها ما تصدع من شملنا، ونجمع ما تفرق من كلمتنا، ونستجمع ما تشتت من قوانا، حتى ننهض بعد العثار، ويقبل علينا المجد بعد الإدبار.

دروس الحب في رسالة عيسى:

لقد كان عيسى ابن مريم صلوات الله وسلامه عليه نبي حب ورحمة، ورسول تسامح وأخلاق، والإنسانية على العموم، ونحن أبناء هذه الأمة على الخصوص في حاجة إلى دروس الحب والرحمة والتسامح وسمو الأخلاق، بعد أن أوقعت بنا الحوادث ففرقتنا كتلاً وأحزاباً وجعلت دنيانا نحن

العرب معسكرات وأشياعاً!.. نحن في حاجة إلى الحب حتى تلتقي قلوبنا، وإلى التسامح حتى تتصافح أيدينا، وإلى السمو حتى نترفع عن صغائر نفوسنا، فصلوات الله على عيسى ابن مريم ما أكرم ذكراه وأروعها في النفوس، وما أجل عبرها ودروسها من عبر ودروس.

دروس القوة في رسالة محمد:

ولقد كان محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، نبي مجد وقوة، لا أنفي عن شريعته الحب فهو روحها، ولا التسامح فهو أساسها، ولكن أميز ما في دينه أنه جمع إلى شريعة الحب، شريعة العدل!.. وإلى قانون التسامح قانون الحذر، وإلى دعوة الأخلاق دعوة المجد والقوة...

لقد كانت دنيا العرب في عصر ولادته دنيا تزخر بالقوى الكامنة، ولكن عوامل الضعف كانت تعمل عملها في التفرقة والشتات وفساد الأخلاق، وكانت دنيا الإنسانية في عصر ولادته، دنيا تزخر بالقوى الطاغية التي تتحكم بمصائر الشعوب، وتستعلي عن فهم حاجات الأفراد، وتسخر الجماهير البائسة العاملة لأهوائها ونزوات طيشها ومطامعها، فجاءت رسالة محمد عليه الصلاة والسلام تصحيحاً لتلك الأوضاع، وحداً فاصلاً بين قوى الشر والخير، وفجراً جديداً لإقامة عهد تنعم فيه الإنسانية بالحب والعدل معاً، وبالتسامح والقوة على استواء واحد.

معنى القوة في الإسلام:

والقوة التي جاء بها نبي الإسلام ليست قوة جسم منقلب منطلق نحو اللذة والعدوان، ولا قوة شعب ظامىء إلى الفتح والطغيان، وإنما هي قوة معتدلة تجمع بين حاجات الروح وحاجات الجسم، وتوفق بين مطالب الفرد ومصالح الجماعة، وتؤمن سيادة الأمة وسلام العالم..

قوة العقيدة:

إنها قوة العقيدة التي تجعل الفرد خاضعاً لله وحده، لا يتحكم في شؤونه رجل دين، ولا يستبد بمصيره رجل دنيا.. عقيدة تستعلي على الزمن والإنسان والقوة والجبروت، فتجعله يخاطب الله بلسان عربي مبين: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

قوة الأخلاق:

وإنها قوة الأخلاق التي لا تجعل من الإنسان ذئباً ضارياً، ولا حملاً وديعاً ذليلاً، بل تجعله مع أبناء أمته أمناً وسلاماً، ومع الطامعين والظالمين بركاناً وضراماً، هي الأخلاق التي تجعل من الفرد في قلبه النور، وفي أعصابه النار، تغرس في نفسه روح التسامح، وتعطيه في يده عصا التأديب، يضفي من تلك على أبنائه وإخوانه، ومن هذه على أعدائه والطامعين في أوطانه..

قوة الحكم:

وإنها قوة الحكم والإدارة التي لا تميز بين ضعيف وقوي، وفقير وغني، بل تحكم بين الناس بالقسطاس المستقيم، وتقول كما قال محمد بن عبد الله: «أما والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها».

قوة الأسرة:

وإنها قوة الأسرة التي لا تجعل من المرأة حيواناً مهيناً، ولا شيطاناً رجيماً، وإنما هي لبنة صالحة منسجمة متسقة مع كيان الوطن، تعمل للخير، وتتوفر لإنشاء الأجيال، وتخرج للدنيا كتائب من العظماء والأبطال، كما أنجبت أمهاتنا سعداً وخالداً وأسامة وصلاح الدين.

قوة الجيش:

وإنها قوة الجيش الذي يصون الذمار، ويدفع العار، ويحقق الأمن في الداخل، ويرد العدوان في الخارج، قوة لا تجعل الجيش أداة طغيان وتهديم، بل أداة إرهاب لأعداء الأمة تحقق قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

تلك هي بعض أسس القوة التي بنى عليها محمد ﷺ دولته الإنسانية الخالدة فحطمت قوى الشر، وحررت جماهير الشعوب، وأعادت للإنسان كرامته وحريته، وأمنت كل مواطن على دمه وماله وعرضه وعقيدته.

يا أبناء الأمة:

هذا درس من دروس ميلاد نبيكم عيسى ونبيكم محمد، فلا تتباغضوا، فالتباغض عند أنبيائكم حرام، ولا تيأسوا فاليأس في دينكم كفر، ولا تقنطوا فالقنوط في قرآنكم ضلال ولا تنهزموا فالهزيمة في شريعتكم جريمة!..

يا إخواننا الوزراء:

وأنتم يا إخواننا الوزراء! لقد شاءت إرادة الله أن تلقي بين أيديكم مقادير أمتكم، فلا تتركوا توجيهها نحو الإيمان والأخلاق، نحو الحذر واليقظة، نحو الإعداد والاستعداد، كونوا لها قدوة في الخير تتبعكم في كل خير، املؤوا نفوسكم بالأمل تمتلىء نفوس أمتكم بالأمل.

إن في أمتكم قوى زاخرة بالحياة فلا تضيعوها ولا تهملوها ولا تحتقروها، وقد قال قائدكم ونبيكم: «لا يحقرن أحدكم نفسه».

نحن أمة الحياة فانهجوا بنا في طريق الحياة! نحن أمة الكفاح فأعدونا لحياة الكفاح! إن أرواحنا ظمأى إلى ورود مناهل الشهادة!.. إننا نريد أن نلحق بركب عيسى ومحمد فلا تحولوا بيننا وبينهما!.. افتحوا لنا طريق الخير!.. افتحوا لنا طريق المجد!.. افتحوا لنا أبواب الجنة!..

أيها الأعداء لا تشمتوا:

وأنتم يا أعداء هذه الأمة! لا تشمتوا بفرقتنا فإن روح عيسى ستردنا إلى الألفة! ولا تفرحوا بضعفنا فإن شريعة محمد ستردنا إلى القوة! ولا تطمعوا في أوطاننا فإن فينا بقية من دماء العظماء والشهداء، تأبى أن تمروا إلى أوطاننا إلا على جثثنا أشلاء ممزقة!..

يا نبي المجد والقوة!

وأنت يا نبي الله ورسوله، وقائد العرب وزعيمهم، سلام عليك في يوم الذكرى من أمة ما تزال تعترف بفضلك وتؤمن برسالتك.

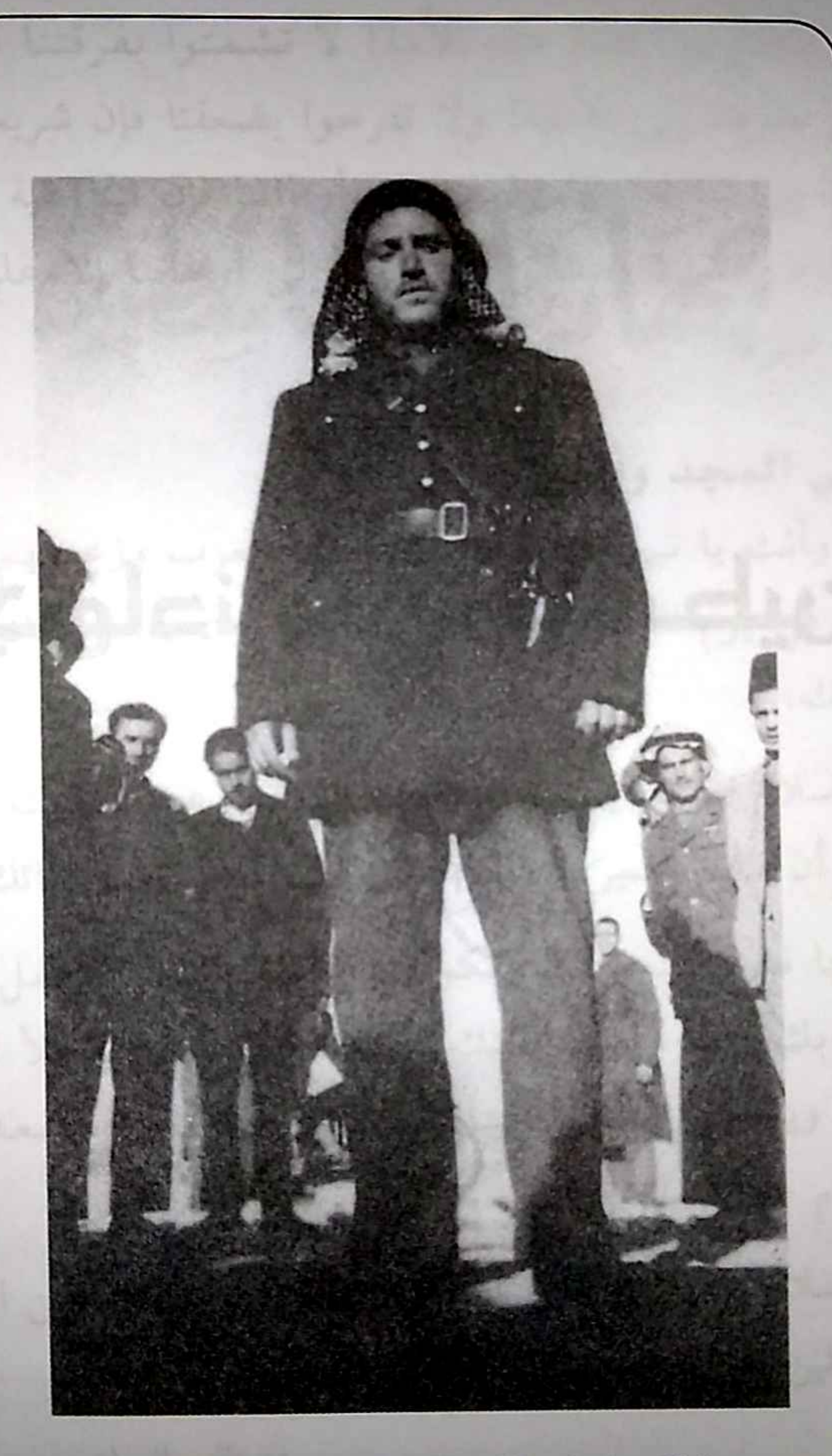
سلام عليك يا نبي المجد والقوة، وعهدنا إليك في يوم ذكراك أن نتابع السير في ركابك، والانضواء تحت لوائك.

يا نبي المجد! لن نكون من أمتك إن لم نعمل لمجد يتصل بك نسبه، وبشريعتك سببه، ويفوح في الملأ الأعلى شذاه، ويجعل الطغاة فينا أثراً بعد عين، ويرد العداة إلى أوكارهم خزايا مدحورين...

سلام عليك وعلى أخيك عيسى وإخوانك من النبيين والمرسلين ومن تبع هداكم إلى يوم الدين..

مصطفى السباعي

جهادنا في فلسطين



الدكتور السباعي قائد كتائب الجهاد في فلسطين ١٩٤٨

لم يحن بعدُ نشر المذكرات التي دوّنتها عما شاهدته في معركة فلسطين بعد قرار التقسيم لظروف واعتبارات متعددة، وإنما أوجز القول هنا في دور الإخوان المسلمين في تلك المعركة وقبلها، لا تبجحاً بما قاموا به من ضروب التضحيات، فقد علّمنا الإسلام كراهية التفاخر بالأعمال والتحدث عنها إلا لضرورة، ولكن تسجيلاً لتاريخ قد يطمسه بعض المؤرخين والكاتبين عن سهو أو عدم اطلاع أو سوء نية.

كان الإخوان المسلمون أول هيئة عنيت بالقضية الفلسطينية على الصعيد الشعبي، ونستطيع أن نحدد بدء هذه العناية بأواسط الحرب العالمية الثانية عام **١٩٤٢** أو **١٩٤٣**، فقد اجتمعت ذلك العام بالأخ المجاهد الشيخ نمر الخطيب في فندق أمية بدمشق وكنت أرحب بزيارته لدمشق قادماً من فلسطين، فحدثني عن استفادة يهود فلسطين من الحرب العالمية الثانية حيث شكلت السلطات البريطانية لهم كتائب تتدرب على القتال، وأمدتهم بالأسلحة والذخائر، واتفق أن وصلت إلى حيفا خلال سني الحرب صناديق كبيرة باسم بعض المحلات التجارية اليهودية على أنها تحمل أقمشة وسلعاً، فتحطم منها صندوق على الرصيف فإذا به يحتوي على مسدسات وبنادق سريعة الطلقات

وغيرها فعلم سكان حيفا بالأمر مما جعل الشهيد الشيخ عز الدين القسام رَحِمَهُ اللَّهُ يعتزم القيام بثورته مع إخوانه ومريديه وقد كان يعمل لها سراً منذ سنين ـ أقول ولقد حضرت له درساً في بعض مساجد حيفا ليلة الإسراء والمعراج وكنت في طريقي إلى القاهرة فأدهشتني قوة روحه وتوجيهه وما يبثه في الناس من آيات الفداء والاستشهاد على تقدمه في السن ـ ثم قال لي الأستاذ الخطيب: إن الوضع في فلسطين خطير ونحن عرب فلسطين يحظر علينا حمل أبسط أنواع السلاح، والعرب والمسلمون غافلون عما يبيَّت لفلسطين من شر بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.

فهل لك أن تعلن صوت النذير والإيقاظ؟ وكان حديثاً دمعت له عينانا وتعاهدنا الله على أن نبدأ العمل.

وألقيت أول محاضرة عن فلسطين ـ نشرتها جريدة القبس كاملة ـ في مقر الإخوان ـ وكان اسمهم يومئذ الشبان المسلمين ـ في باحة مسجد الدرويشية بدمشق، وانتهت المحاضرة بحماس من المستمعين خرجوا على أثرها في مظاهرة كبرى تهتف لفلسطين وتدعو إلى العمل من أجلها، حتى إذا وصلت المظاهرة أمام مديرية الشرطة العامة على ضفة بردى خرج مدير الشرطة العام ـ وكان يومئذ الدكتور عبد الكريم العائدي - وأبدى دهشته من مثل هذه المظاهرة الليلية، حيث كانت الأحكام العرفية معلنة، والتجمعات ممنوعة بمناسبة الحرب، وحاول فض المظاهرة بالحسنى فأبى الجمهور إلا أن تصل إلى فندق الشرق حيث كان يقيم رئيس الوزراء السيد سعد الله

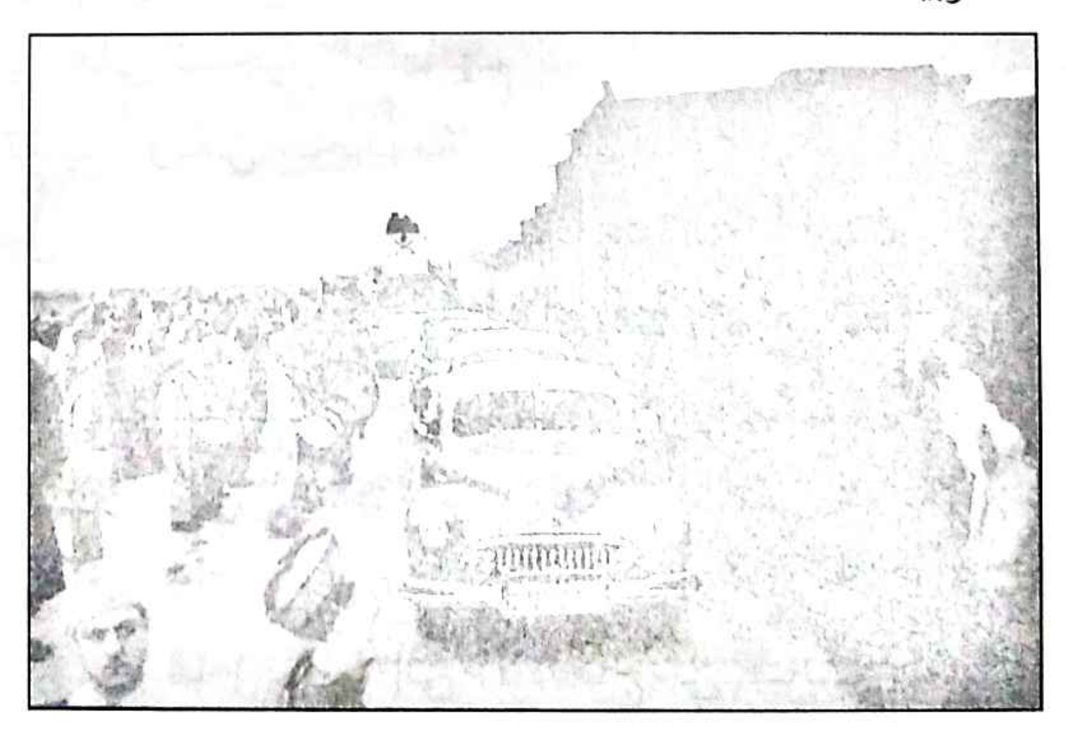
الجابري رحمه الله، ولما وصلت إلى ساحة محطة الحجاز حيث فندق الشرق رغب المتظاهرون في إرسال وفد منهم لمقابلة رئيس الوزراء حيث يشرحون له خطورة القضية الفلسطينية فأبى استقبال الوفد وأرسل مدير الشرطة العام ليحمله المتظاهرون مطالبهم ثم تفرقت المظاهرة.

❖ ❖ ❖

وانتقلت بعد ذلك إلى جميع المدن السورية أشرح للجماهير خطورة الوضع حتى اتهمني الغافلون عن حقائق الأمور في فلسطين بأني أبالغ كثيراً فيما أسرده من حقائق.

ولما انتهت الحرب العالمية الثانية أخذ الإخوان المسلمون يعملون لفلسطين في ثلاثة ميادين:

١ ـ الصعيد الرسمي بتقديم المذكرات للحكومة والجامعة العربية.



الدكتور السباعي في طليعة كتائب الجهاد

٢ ـ الصعيد الشعبي بالمحاضرات والاجتماعات العامة في المدن والقرى.

٣ ـ الصعيد العملي حيث أرسل الإخوان بعض شبابهم ليزوروا فلسطين ويطلعوا على أحوال اليهود فيها، فزاروا يافا وتل أبيب وحيفا والقدس وكثير من المستعمرات اليهودية.

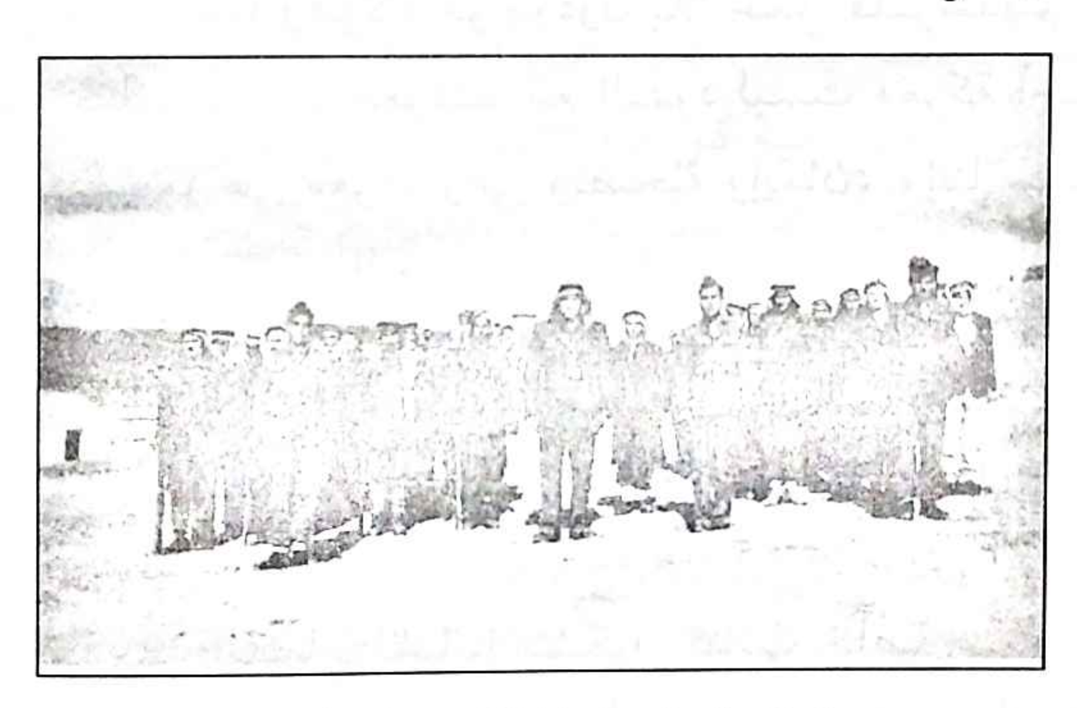
فلما كانت كارثة التقسيم عام ١٩٤٨ وهبّ الشعب في جميع البلاد العربية يطالب بالتطوع في القتال لمنع التقسيم، أخذ الإخوان يعقدون الاجتماعات العامة يبينون خطر الكارثة ووضعوا لذلك ميثاقاً أخذوه على الجماهير بتأليف جيش لتحرير فلسطين يتطوع فيه كل قادر على القتال، وبرفض التقسيم والدفاع عن عروبة فلسطين، وأعلنوا فتح باب التطوع في مراكزهم في جميع أنحاء البلاد، وأقبل الشعب إقبالاً منقطع النظير على تسجيل أسمائهم كمتطوعين في جيش التحرير المرتقب، ولكن الحكومة فاجأتنا بقرار يمنع أية هيئة من تسجيل المتطوعين (وكان واضحاً أننا نحن المقصودون بهذا القرار إذ لم تكن هنالك هيئة أعلنت قبول المتطوعين غير الإخوان) ثم اتخذت الجامعة العربية قراراً بتأليف جيش الإنقاذ وافتتحت الحكومة مراكز للتطوع، فطلبنا منها أن يكون شبابنا منضمين في كتائب خاصة بهم تحت قيادة جيش الإنقاذ فرفضت ذلك، مما دعا إخواننا إلى الاندماج في كتائب المتطوعين، ولكن ما سارت أفواج المتطوعين إلى فلسطين حتى جاءتنا

رسائل الإخوان المتطوعين من كل مكان تستغيث من الجو الذي يعيشون فيه ويطلبون إلينا أن تكون لهم كتائب خاصة بهم ينسجمون فيها مع عقيدتهم وعبادتهم وأخلاقهم.

كانت فكرة المسؤولين قائمة على أن المتطوعين يجب أن يكونوا من العامة وذوي السوابق في الجرائم أو المتعطلين عن العمل، فقد قال لي مسؤول كبير: إنك تحمس الشباب المتعلمين للتطوع في حرب فلسطين، ومن الحرام أن نرسل بهذه الزهرات ليموتوا هناك، وخير منهم العاطلون من القبضايات! (أي الشطار وأهل الفتوَّة ممن عرفوا بالجرأة في القتل والضرب) وهؤلاء موجودون بلا عمل فلنرسلهم إلى هناك، فقلت له: إن معركتنا مع اليهود ليست معركة أجسام وزنود بقدر ما هي معركة وعي وتضحية وإيمان، وإننا سنقاتل في فلسطين شباباً من اليهود أُعِدوا فكرياً وعسكرياً لهذه المهمة منذ سنوات.

هذا هو السبب في أننا طلبنا أن تكون لشبابنا كتائب خاصة بهم تحت قيادة جيش الإنقاذ، وأخيراً عدنا إلى الإلحاح مرة أخرى في السماح لشبابنا بتشكيل كتائب خاصة بهم فكان الجواب: إذا أردتم أن تذهبوا في أفواج خاصة فنحن لا نقدم لكم سلاحاً بل يجب أن يكون سلاحكم منكم، هذا مع أن الجامعة العربية أرصدت لجيش الإنقاذ مبالغ طائلة، وكل المتطوعين عندهم يقدمون لهم أسلحتهم وذخيرتهم وألبستهم، فليس امتناع المسؤولين عن إعطائنا السلاح إلا تحميلنا ما لا

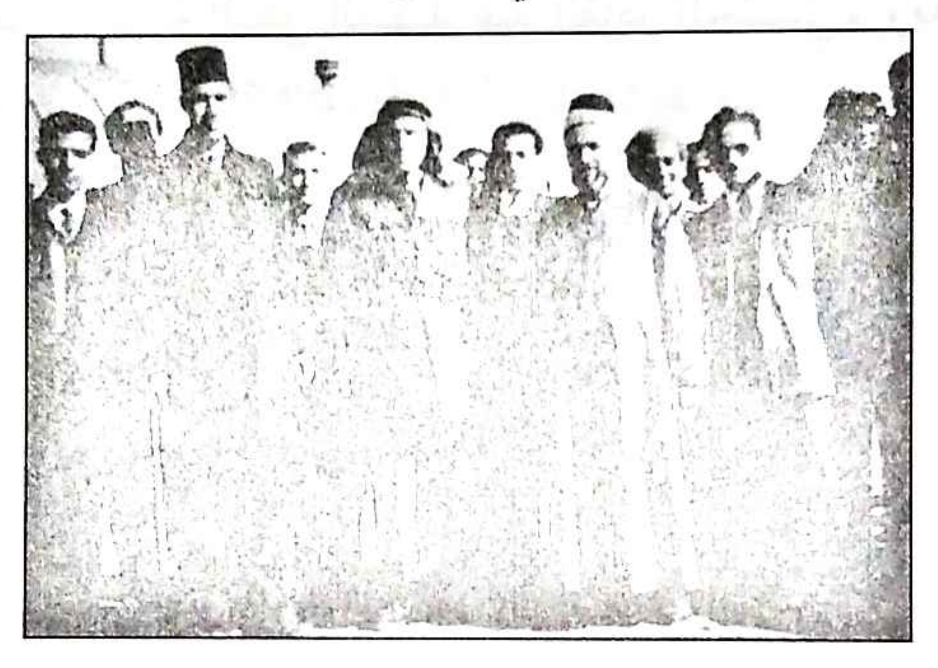
نقدر عليه. فقد بلغ ثمن البندقية ألف ليرة سورية (مائة جنيه استرليني) وأكثر شبابنا المتحمسين للقتال طلاب وعمال فكيف نستطيع أن نتحمل ثمن أسلحتهم؟ ولم نجد بداً من عرض الأمر على الإخوان المتطوعين فكان من حماستهم ما يذهل ويدهش، فمنهم من تبرّع بثمن بندقية، ومنهم من اشترك مع أخ أو أخوين في ثمن بندقية، ولا أستطيع الآن أن أفيض في تسجيل هذه المآثر، وحسبي أن أذكر شيئاً مما تيقنته بنفسي، فقد رأيت بعضهم وكان على أهبة الزواج يبيع إحدى سجادتيه اللتين اشتراهما لزواجه، ورأيت منهم من باع بعض ثيابه، ورأيت من استدان، وهكذا...



الدكتور السباعي في قيادة الفوج الثاني في قطنا

وأخذنا نفتش عن السلاح وكان نادراً وغالياً، واضطرني ذلك لإقامة شهر كامل في محافظة حلب نتجول في كل يوم في القرى المتاخمة للحدود التركية لشراء البنادق والمسدسات، حتى إذا تم لنا تجهيز السلاح لكتيبة كاملة انتقينا من مئات

إخواننا المتطوعين في مختلف المحافظات السورية من نعلم خلوهم من عوائق القتال في فلسطين، واضطررنا للاقتراع بينهم فغضب لذلك كثيرون حتى أن بعضهم قدّم استقالته من الإخوان لأننا حلنا بينه وبين الجهاد في سبيل الله!..



الدكتور السباعي في وداعه قبل الانطلاق إلى فلسطين

التدريب في معسكر قطنا

تم الاتفاق بيننا وبين طه الهاشمي على أن تذهب كتيبة الإخوان في موعد معين إلى معسكر قطنا للتدريب على أساليب القتال، واتفق قبل ذهابنا بيومين أن وصلت كتيبة من كتائب الإخوان في مصر لتشترك معنا جنباً إلى جنب في القتال في المكان الذي ألححنا أن نكون فيه وهو مدينة القدس، وكان القتال فيها من أخطر المعارك، إذ كانت المعركة بين بيت وبيت، ولا يفصل بين مواقع المجاهدين العرب وبين اليهود إلا شارع ضيق لا يزيد عرضه عن بضعة أمتار في كثير من الأحيان.

إلى فلسطين

بقينا في معسكر قطنا نحو شهر ونصف حتى حان موعد ذهابنا، فسافر الفوج الأول من إخواننا بقيادة الملازم عبد الرحمٰن الملوحي وصحبة البطل الشهيد عبد القادر الحسيني، وقد حضر هذا الفوج معه معركة «القسطل» التي استشهد فيها رَحِمَهُ ٱللَّهُ. ثم سافر الفوج الثاني وكان معنا مجاهدون آخرون بقيادة ضابط مسيحي من أبناء فلسطين أذكر أن اسمه «عيسى» واجتزنا جسر اللنبي إلى فلسطين. وتقرر أن نتجه إلى «أريحا» قرب القدس، ثم ننتقل منها إلى القدس. وتوزعنا على بيوت قرية مجاورة اسمها «البيرة» على ما أظن، وكان من نصيبي أن أبيت تلك الليلة في بيت خوري القرية وقد لقيت منه ومن أسرته كل ترحاب وإكرام، واتفق فور وصولنا إلى «أريحا» أن جاءنا طلب النجدة لمعاونة المجاهدين في معركة «نيفي (النبي) يعقوب» فخرجنا في ظلام الليل إلى تلك المستعمرة وانقسمنا فريقين سار كل فريق في اتجاه، وضلّ دليلنا الفلسطيني طريقه في تلك الليلة المظلمة فاجتزنا منطقة صعبة تفيض بالمرتفعات والمنخفضات، ولما وصلنا إلى المستعمرة كان صوت القنابل والرصاص قد خف، وأخذنا مواقعنا الحصينة وراء الصخور، فسمعنا أصواتاً تدل على وجود جماعة كبيرة قرب المستعمرة، فكدنا نبدأ بإطلاق النار عليهم ظناً منا بأنهم من سكان المستعمرة اليهودية، ولكنا تريثنا حتى أرسلنا بعض الفدائيين يكتشفون أمرهم فعادوا يخبروننا أن تلك الجماعة هم الفريق الثاني من إخواننا. . كنا نرى بين حين وآخر أضواء خافتة

تنبعث من المستعمرة فنوجه إليها نيراننا حتى إذا أوشك الصبح أن يطل علينا عدنا إلى أماكننا المخصصة لنا في القرية، وفي الصباح وجدنا فيها عدداً من مجاهدي «الجهاد المقدس» الذي تشرف عليه الهيئة العربية العليا، وبعد الظهر انتقلنا إلى بيت المقدس.

في المسجد الأقصى

كان فرحنا عظيماً إذ أتيح لنا أن ندافع عن المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين، وأن نستشهد في هذه البقعة المباركة، وقد وجدنا في القدس فوجاً من العراقيين المتطوعين يرأسهم المجاهد السيد فاضل رشيد عبد الله، عدا من كان فيها من مجاهدي القدس ممن تضمهم منطقة «الجهاد المقدس» ثم توزع الإخوان على مناطق القدس العربية التالية: الشيخ جراح، المصرارة، سعد وسعيد، القطمون.



كتائب المجاهدين بقيادة السباعي في أرض المعركة

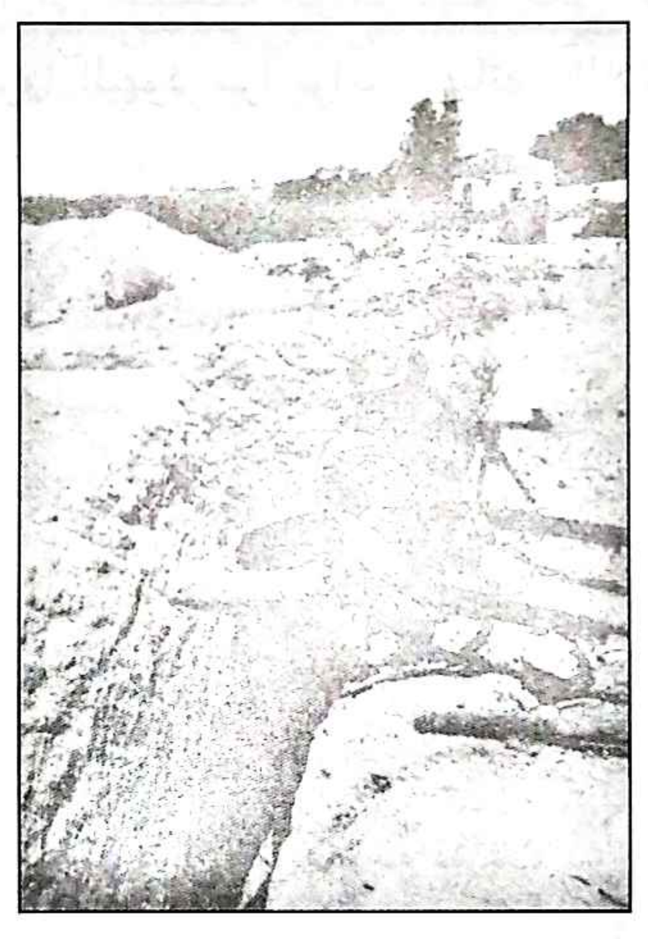
وكان المسؤول عن المناطق الثلاثة الأولى الأخ عدنان الدبس، والمسؤول عن القطمون كلّاً من الأخوين: زهير شاويش (نائب دمشق الآن) والمرحوم كامل حتاحت، وتألف من إخواننا فريق الانضباط لحفظ الأمن في المدينة بقيادة الشهيد ضيف الله مراد، ثم انضم إليه بعد انتهاء معركة القطمون الأخ زهير شاويش الذي طارد اللصوص والفجار وأغلق الخمارات وأندية القمار، وقد شعر سكان المدينة بالأمن والطمأنينة منذ استلامنا انضباط المدينة فجاء وفد منهم إلى القيادة معرباً عن شكره وامتنانه، وبقي في القيادة عدد منا للإشراف على الاتصال بين المراكز وأمور السلاح والذخيرة وكان يشرف عليهم الأخ لطفي السيروان.

وكان منامي في غرفة القيادة بالروضة المطلة على المسجد الأقصى مع الضابط فاضل عبد الله والملازمين عبد الرحمٰن الملوحي وجمال الصوفي.

معاركنا في القدس

كان من واجبنا أن نضيّق الخناق على يهود القدس الحديثة والقديمة، وكان فريق من مجاهدي الإخوان المصريين بإشراف الأخ محمود عبده وقيادة البطل الشهيد أحمد عبد العزيز يرابطون في «صور باهر» القرية العربية الواقعة جنوبي القدس، كما كان فريق من إخواننا الأردنيين بقيادة الأخ الحاج عبد اللطيف أبو قورة يرابطون في «عين كارم» الواقعة غربي القدس، وقد استطاع

المجاهدون الفلسطينيون قطع الطريق الموصل من تل أبيب إلى القدس بعد معارك طويلة عند «باب الواد» اشتركت فيها مدفعية جيش الإنقاذ وحضرنا جزءاً منها، وبذلك أصبح يهود القدس ومستعمراتها القريبة منها مطوقين تطويقاً تاماً، إذ كان العرب أيضاً يسيطرون على طريق القدس الشرقي لأنه طريق أريحا وعمان، كما كانوا يسيطرون على طريق القدس الشمالي إذ كان طريق نابلس العربية ويسيطر على مدخله حي الشيخ جراح العربي.



في الخنادق في القدس الجديدة

كانت المعارك بيننا وبين اليهود في أطراف القدس وداخلها مستمرة لا ينقطع فيها أزيز الرصاص والرشاشات والقنابل ساعة واحدة في ليل أو نهار من خلال نوافذ البيوت أو منعطفات الطرق أو الهجمات المباغتة على مراكزهم أو

هجماتهم على مراكزنا، وكثيراً ما كانت ترسل النجدات المتعددة في يوم واحد إلى مراكزنا من المجاهدين الاحتياطيين الموجودين في مقر القيادة.

اشتداد المعارك بعد جلاء الإنجليز

ولما جلا الإنجليز عن فلسطين في ١٥ أيار (مايو) عام ١٩٤٨ أضافوا إلى سلسلة مؤامراتهم على العرب مؤامرة جديدة، إذ أخبروا اليهود سراً بواسطة بناتهم اللاتي كن يعاشرن الضباط الإنجليز عن موعد جلائهم عن المراكز العسكرية التي كانوا يحتلونها في منطقة القدس، وكانت كحاجز بين جماهير العرب وجماهير اليهود المدنيين مما كان يمكنهم من مزاولة أعمالهم والبقاء في بيوتهم، فلما تم احتلال اليهود لتلك المراكز يوم ١٥ أيار أصبح وضع العرب في القدس محرجاً لقلة المقاتلين والذخيرة عندهم مما يستحيل معه احتفاظهم بأكثر أحيائهم العربية في القدس الحديثة، وأذكر أننا خرجنا في صباح ذلك اليوم إلى مستعمرات «كفار عصيون» الواقعة جنوب القدس على طريق الخليل إثر معركة نشبت بين اليهود في هذه المستعمرات وبين كتيبة من الجيش العربي بقيادة الكولونيل عبد الله التل، وانتهت بتدمير المستعمرة الرئيسية تدميراً تاماً واستسلام سكان المستعمرات المجاورة لها. وقد كان طريقنا إليها من باب الخليل في القدس مارِّين بحي منتوفيوري اليهودي الذي كان المجاهدون الفلسطينيون بقيادة الشهيد عبد القادر

الحسيني قد دمروا أكثر أبنيته الضخمة، خرجنا في الصباح وكان الإنجليز يتأهبون لمغادرة القدس وقد اصطفت قوافل سياراتهم العسكرية في رتل طويل جنوب القدس. ولما انتهينا من الإشراف على استلام الأسرى اليهود الذين أبوا أن يستسلموا إلا للجيش العربي دون المجاهدين العرب، ونقلوا في سيارات الجيش العربي إلى عمان وقد قيل يومئذ أن من بين الأسرى بنت الزعيم اليهودي (وايزمن) ولم نتأكد نحن من ذلك لأن البنات الأسيرات اللواتي كن يقاتلن مع الرجال أبين أن يخبرن عن أسمائهن.

لما انتهينا من ذلك كان الوقت قد أشرف على الغروب فلما اقتربنا من القدس كان اليهود قد قطعوا الطريق إلى باب الخليل باستحكاماتهم التي أقاموها على أطلال حي مانتوفيوري فوجدنا أنفسنا معرضين لنيرانهم مما اضطرنا إلى ركوب سيارة مصفحة كان المجاهدون المقدسيون قد غنموها من اليهود في إحدى معاركهم، ولما وصلنا مقر القيادة وجدنا الأمر قد تغير تماماً وأكثر سكان الأحياء العربية المتاخمة لليهود قد هجروها إلى داخل مدينة القدس.

معركة القطمون

حي القطمون هو أهم حي عربي في القدس الحديثة واقع في جنوبها ويشبه إلى حد كبير حي «أبي رمانة» في دمشق إذ كان يقطنه سراة العرب المقدسيين وأعيانهم، وكانت تقع فيه

أكثر القنصليات العربية، كما كان يسكنه الزعيم الفلسطيني المجاهد أحمد حلمي وقد أبى مغادرته بعد جلاء الإنجليز رغم خطورة الوضع فيه، وكان يزور إخواننا المرابطين في هذا الحي كل يوم تقريباً، ولما تم جلاء الإنجليز عن القدس أصبح وضعهم حرجاً إذ كانت فيه قنصليتا الأردن والعراق مع حرَّاسهما، وفي ذات يوم فوجىء إخواننا بانسحاب حراس القنصليتين ومن فيهما فشدد اليهود هجماتهم على إخواننا وعلى المجاهدين الفلسطينيين المرابطين في الحي نفسه بقيادة الشهيد البطل «أبي دية» رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولما احتل اليهود المنطقة التي كان يدافع عنها أبو دية بعد معركة عنيفة أصبح إخواننا محاصرين من كل جانب، ولم يكونوا أكثر من ٢٤ مجاهداً مع قليل من الذخيرة والعتاد وقد صمدوا لهجمات اليهود أكثر من ثلاثة أيام دون أن يستسلموا حتى وقعت هدنة بين القيادة العربية واليهود بواسطة الصليب الأحمر لمدة ٢٤ ساعة لنقل قتلى اليهود وجرحاهم، عندئذ انسحب إخواننا إلى داخل مدينة القدس وأصبح حي القطمون كله تحت سيطرة اليهود.

معركة الحي اليهودي في القدس القديمة

ابتدأت قبل جلاء الإنجليز عن القدس بخمسة أيام، فقد كان اليهود في هذا الحي محاصرين منذ ستة أشهر يأتيهم طعامهم وحاجاتهم بواسطة الإنجليز، وأخيراً صمم المجاهدون على اقتحام الحي والتخلص منه، وكانت معركة من أشد

المعارك التي خضناها في القدس أظهر فيها المجاهدون من البطولات ما يعجز عنه الوصف، فقد كانوا يتقدمون لنسف الحي اليهودي بيتاً بيتاً بأيديهم الرشاشات والقنابل تحت وابل من الرصاص والقنابل الذي كان يقذفه اليهود عليهم من نوافذ البيوت، وكلما انتهى المجاهدون من نسف بيت ابتدأوا بنسف بيت آخر وهكذا. كان الحي ضيق الطرقات جداً كما هو شأن الأحياء اليهودية القديمة في كل مكان، وكانت فيه ممرات تحت الأرض متصل بعضها ببعض بحيث يستطيعون العودة في الليل إلى ما فقدوه في النهار، وكثيراً ما كان يفاجأ المجاهدون وهم واقفون فوق أطلال البيوت بقنابل تلقى عليهم من قرب كما حدث لي ذات مرة، ولولا لطف الله لأصبنا إصابات بالغة.

ولما غادر الإنجليز القدس اشتدت هجمات المجاهدين العرب على الحي، كما اشتدت مقاومة اليهود، ثم اضطروا للتسليم لنفاذ ذخيرتهم بعد وقوع معركة القدس الكبرى التي سأتحدث عنها فيما بعد، وقد كان وفد المفاوضة منهم مؤلفاً من مختار الحي وهو يهودي عاش في فلسطين يتحدث العربية بطلاقة، ومن اثنين من الحاخاميين أحدهما عراقي والآخر بولوني كان يتلو التوراة بلا انقطاع، ومن شاب مدرِّس وفتاة كانت تدعي أنها ممرضة وتبين فيما بعد أنها من «الهاجانا» وهما يتكلمان العربية بطلاقة أيضاً، وقد علمت من الفتاة أنها تتقن استعمال جميع أنواع السلاح من المسدس إلى مدفعية

«الهاون». كما علمت من وفدهم أنهم لم يسلموا إلا لنفاد ذخيرتهم، أما الطعام فكان لديهم موجوداً رغم الحصار المفروض عليهم منذ ستة أشهر، وقد علمنا منهم أن الطعام كان يصلهم بواسطة الإنجليز قبل جلائهم، ومن كنيسة الأرمن المحاذية لهم بعد ذلك، وقد تولى قائد الجيش العربي الذي حضرت منه مدفعية صغيرة في انتهاء معركة القدس أمور المفاوضات مع اليهود.. وكان المجاهدون يصرون على أن يأسروا جميع من في الحي انتقاماً من حوادث دير ياسين، ولكن قائد الجيش العربي كان يتصل دائماً بقادته في عمان، وأخيراً جاء إليه الإيعاز بأن يتسلم أسلحتهم ويأسر القادرين منهم على القتال ويترك رجال الدين والنساء والفتيات ـ ولو كن مقاتلات ـ والعجزة والأطفال إلى الصليب الأحمر، وأن يسمح لهم بأخذ كل ما يستطيعون حمله من حلي ومال وثياب!..

وانتقلنا بعد ذلك إلى الساحة الكبرى في الحي اليهودي وكان اليهود قد تجمعوا فيه وكانوا مختلفين في حالة الجزع والخوف، فاليهود الأوروبيون وكلهم شباب وفتيان كانوا يتجلدون ولم نرَ واحداً منهم تدمع عيناه، أما اليهود العرب فقد كانوا في حالة من البكاء والرعب شديدة، ومن طرائف ما رأيته في ذلك اليوم أنه بينما كنا واقفين في ساحة الحي اليهودي ننتظر حضور اليهود جميعاً إلى الساحة جاءني يهودي في نحو الستين وهو يبكي ويقول بلهجة دمشقية: يا سيدي! أهذا عدل؟ أليس حراماً؟ قلت له: ماذا حصل لك؟ فأجابني وهو يبكي: يا

سيدي لقد فقد طربوشي!.. فأجبته وأنا أتميز من الغيظ ولا أتمالك من الضحك؟.. لقد قتلتم في دير ياسين بناتنا وأطفالنا وفعلتم بهم أشنع الأفعال، أفلا يكفيك من عدالتنا اليوم أنك ضمنت حياتك وستكون في المساء عند إخوانك في القدس الحديثة؟ ومع ذلك تسأل عن الطربوش؟!..

وبعد انتهاء تجمُّعهم أفرز الشباب منهم برأي القائد العربي فلم يتجاوزوا مئة، مع أن مقاتليهم كانوا يزيدون على خمس مئة قطعاً، وأخرج من بينهم رجال الدين ولو كانوا شباباً والنساء مع أن أكثرهن مقاتلات، وانتقلنا إلى المستشفى فوجدناه مليئاً بمن يتظاهرون أنهم من الجرحى إذ كانوا قد عصبوا أيديهم ورؤوسهم وأرجلهم بعصائب، فأبينا إلا أن نفتش عن كل واحد منهم، وكان معنا طبيب عربي، وتبين بعد الفحص أن أكثر عصائبهم كانت تمويهاً فضممناهم إلى الأسرى من الشباب. أما السلاح فلم يسلِّمونا إلا قطعتين أو ثلاثة، وسألناهم أين سلاحكم؟ فرفضوا أن يجيبوا وفتشنا في البيوت فلم نجد شيئاً، فغلب على ظننا أنهم ألقوها في الآبار البعيدة الغور، وبعد أن تم تسليم غير المأسورين إلى الصليب الأحمر دخل المجاهدون إلى بيوتهم فتبين أنهم قد زرعوا أبواب البيوت بالقنابل المتفجرة مما حملنا على أن نخصص بعضاً من المجاهدين لتتبع هذه القنابل والتقاطها قبل انفجارها، وقد أصيب بسبب ذلك الأخ إبراهيم حداقي مما أدى إلى بتر معصمه الأيمن بعد أن حمل قنبلة ليرميها بعيداً فانفجرت وهي بيده.

أما سكان القدس من العرب فقد تجمعوا في الشوارع ليشهدوا الأسرى، وكانوا يريدون التقاط صور لهم ولكن قيادة الجيش العربي أبت ذلك وأخرجتهم من القدس قبيل الفجر لئلا يراهم أحد. وهكذا انتهت معركة الحي اليهودي وغادرناه والدمار قد حاق بأكثره، والحرائق التي أشعلها اليهود قبل مغادرتهم قد أتت على الباقي..



بعض المجاهدين يتوسطهم الدكتور السباعي

نسف الكنيس اليهودي

تميزت معركة الحي اليهودي في القدس بحادث كان له وقع أليم جداً في نفوس اليهود، ذلك أنه يوجد لهم فيه أقدم كنيس في فلسطين وربما كان في العالم كله، وهو بناء ضخم مستدير له قبة عالية، وهو يشرف على صحن المسجد الأقصى وقبة الصخرة، ولهم فيه أقدم نسخ التوراة المتوارثة عندهم منذ مئات السنين مكتوبة بخط عبري واضح على جلد سميك، وقد اتخذ اليهود هذا الكنيس مركزاً حربياً يطلقون منه نيران بنادقهم

ورشاشاتهم على المسلمين المتجولين في حرم المسجد الأقصى، ولما تمادوا في هذا العمل أنذرناهم بواسطة مكبرات الصوت أننا سننتقم منهم وسنهدم الكنيس إذا استمروا في استغلال أماكن العبادة للأعمال العدوانية، ولكنهم ازدادوا في العناد فوضعوا أكياس الرمل على سطح الكنيس حول قبته واستمروا يطلقون من ورائها النيران على الحرم القدسي وعلى مقر قيادتنا في الروضة، حتى إذا بدأت معركة الحي اليهودي وتمكن المجاهدون من نسف قسم كبير من بيوته وأصبحوا على مقربة منه قرروا نسف الكنيس، وفي ساعة من ساعات النضال في هذه المعركة وضعت المتفجرات في أنحاء متعددة من أسسه بما يزن أكثر من نصف طن من الديناميت ثم أشعلت النيران في أسلاك الديناميت، فما أتت دقائق حتى كان هذا الكنيس الضخم تتهاوى جدرانه السميكة وينقض جزء من قبته ويملأ الركام أرجاءه. وهكذا تخلص المجاهدون من مركز قوي من مراكز العدوان اليهودي في ذلك الحي.

ولما استسلم اليهود ووقفنا في ساحة الحي نشرف على تنفيذ شروط الاستسلام قال لي أحد أعضاء وفد الاستسلام اليهودي والمرارة تأكل قلبه: لقد أخطأتم بنسف الكنيس وستندمون، فقلت له: لقد أنذرناكم أكثر من مرة بعدم اتخاذه مركزاً للعدوان فلم تستجيبوا، أما أن نندم فهذه معركة قائمة بيننا وبينكم ولم يمنعكم إجرامكم من قبلها أن تعتدوا على قبة الصخرة وتنسفوا المساجد في يافا وحيفا ودير ياسين وغيرها.

ولما تم جلاء اليهود عن الحي أخذ فريق من المجاهدين يتفقدون الكنيس المتهدم فوجدوا بين الأنقاض أكثر من نسخة من التوراة ضمن صناديق فضية مستطيلة، وقد أهدى بعضهم قطعاً منها إلى بعض ملوك العرب ورؤسائهم واحتفظ بعضهم بنسخة كاملة منها.

معركة القدس الكبرى

لما تم جلاء الإنجليز عن القدس وكان الحي اليهودي لم يستسلم بعد، أدركنا حرج موقف حامياتنا في القدس الحديثة، وأن اليهود سيبذلون قصارى جهدهم لإنقاذ إخوانهم المحاصرين في الحي اليهودي، وكانت الذخيرة عندنا قليلة، بل إن فوج اليرموك وكان فيه إخواننا وعدده أكثر من خمسمائة مجاهد كانت بنادقه ورشاشاته كلها من النموذج الألماني ولم يبق لديهم من الذخيرة إلا نزر قليل جداً، مما حملني على أن أغادر القدس إلى دمشق طالباً من قيادة جيش الإنقاذ تزويدنا بما نحتاج إليه من الذخيرة استعداداً للمعركة المرتقبة، وقابلت طه الهاشمي وعرضت عليه ما جئت من أجله، ففاجأني بقوله: إن فوج اليرموك قد سحب من القدس إلى مقر قيادة القاوقجي فلماذا تطلب الذخيرة الألمانية؟

وهنا أدركت مصير معركتنا التي وضعت بأيدي مثل هذا الرجل، فقلت له: ومتى سحب فوج اليرموك؟ قال منذ أسبوع، فقلت أنك أرسلت برقية إلى قائد فوج اليرموك تطلب إليه أن

يلتحق شخصياً بفوزي القاوقجي نظراً لتبرم المجاهدين من جهله وغباوته وجبنه، أما فوج اليرموك فلا يزال في القدس وإخواننا فيه وأنا الآن قادم من القدس وبنادقنا خاوية من الذخيرة، فأجابني بكل صلف: «ماكو عندنا ذخيرة ألمانية» أي لا يوجد، فخرجت من عنده إلى رئيس الجمهورية وعرضت عليه الأمر، فاتصل بالهاشمي وطلب إليه أن يعطيني ذخيرة ألمانية، فلما عدت إلى الهاشمي وجدته مربد الوجه وخاطبني بقوله: «كيف ننجح وكل شيء عندنا بالوساطات؟!...» قلت له: إنني لا أتوسط لوظيفة عندك، ولكن أتوسط لنموت في المعركة موت الشرفاء!..

فأجابني: إنني أمرت بإعطائك خمسة آلاف طلقة إكراماً لرئيس الجمهورية! فقلت له: هذه سينال منها كل بندقية عشر طلقات، ونحن في القدس نتناوش مع اليهود في كل ساعة فماذا نستطيع أن نقاوم بهذه الرصاصات العشر؟ فألح في عناده وخرجت من عنده مغضباً إلى وزير الدفاع فعرضت عليه الأمر فاعتذر بأنه ليس عندهم ذخيرة ألمانية، وفي نهاية الحديث قال: إنه سيتصل بالقيادة العربية العليا للجيوش العربية في عمان ويطلب منها إجابتي إلى طلبي. وقبل مغادرتي دمشق اتصلتُ به هاتفياً فأكد أنه اتصل بعمان ووعدوه بإجابة طلبي، وعدت إلى عمان في نفس اليوم واتصلت بالقيادة العامة فكانوا مدهوشين من دعوى وزير الدفاع اتصاله بهم، وقالوا: أنه يعلم أن ذخيرتنا كلها إنجليزية فمن أين نأتيك بالذخيرة الألمانية؟

ولما يئست منهم اتصلت بأعضاء لجنة الدفاع عن فلسطين

في عمان وكلهم من خيرة التجار السوريين والأردنيين في العاصمة، وعرضت عليهم الأمر وطلبت منهم النجدة فأسرعوا يشترون كل ما وجدوه في السوق من ذلك، وزادوا عليه عديداً من القنابل وبعض الأسلحة، فعدت إلى القدس وقد حملت من عمان آلاف الطلقات التي تمكننا من الاستمرار في المعركة ساعات، وكان وصولي قبيل الغروب بدقائق، ووجدت معركة الحي اليهودي مشتدة في ذلك اليوم، وقد جرح فيها الملازم الملوحي وما يزيد على أربعين من إخواننا واستشهد فيها ما يزيد على سبعة من شهداء الإخوان، ووجدت القائد فاضل عبد الله مستلقياً على فراشه مستغرقاً في نوم عميق من شدة الإعياء والسهر في الليالي الخمس المواضي، حتى إذا كان الوقت الساعة العاشرة ليلاً جاءتنا أنباء من جميع حامياتنا على أبواب مدينة القدس بأن اليهود قد شنوا هجوماً عاماً على مختلف الأبواب، وركزوا هجومهم على باب الخليل الملاصق للحي اليهودي، عندئذ بدأت أوزع الرصاص على المجاهدين.

ولما اشتد الهجوم الذي شنّه اليهود على باب الخليل بما يقرب من عشرة مصفحات وآلاف المقاتلين، لم أجد بداً من الاستنجاد بإحدى العواصم العربية فطلبت كبار المسؤولين باسم قائد حامية القدس، ثم أيقظت القائد فاضل عبد الله وأخبرته بخطورة الوضع وأني قد طلبت كبار المسؤولين في العاصمة العربية باسمه، وتم الاتصال بينه وبين كبير منهم وأعلمه بخطورة الوضع في القدس وطلب منه إرسال نجدة عسكرية

على وجه السرعة فاعتذر عن ذلك وقال له وأنا أسمع: إذا وجدتم أنفسكم في موقف حرج فانسحبوا من القدس، فأجابه القائد: إن في القدس عدا أهلها ما يزيد على عشرين ألفاً من اللاجئين إليها بعد مجزرة دير ياسين، فإذا احتلها اليهود فستكون مجزرة لم يسمع بها التاريخ، فأجابه المسؤول الكبير وهو يظن أن حامية القدس كلها من بلده: أنا آمرك بالانسحاب وأنتم عندنا أغلى!.. وهنا لم أتمالك من أن أقول له: إن الحامية تقسم أن لا يدخل اليهود القدس إلا على أشلائها، فإما أن تنجدونا وإما أن نقاتل حتى نستشهد جميعاً، وهنا جاء من يقول لنا: إن اليهود قد اقتحموا باب الخليل! فتركنا الحديث مع تلك العاصمة العربية!

وأسرعنا إلى إخراج كل من كان في القيادة من الجنود حتى الجرحى ووزعنا عليهم كل ما كنت استحضرته من الرصاص والذخيرة من عمان، وأسرعنا إلى باب الخليل، وشاع في البلدة أن اليهود قد اقتحموا باب الخليل فخرج النساء والأطفال من بيوتهم وكان الكهرباء منقطعاً، وسمعنا منادياً يقول: يا أهل القدس كل من عنده سلاح فليذهب إلى باب الخليل، وهرع الشباب والمقاتلون إلى هناك حيث تبين لنا أن اليهود لم يستطيعوا اقتحام باب الخليل للدفاع البطولي الذي قامت به الحامية هناك، وتحصن المجاهدون ومن هرع من أهل القدس وراء المتاريس عند باب الخليل وفوق أسواره وابتدأت المعركة الكبرى منذ الساعة الحادية عشرة ليلاً حتى الخامسة

صباحاً كان فيها صوت الرصاص والقنابل والديناميت يضج الآذان بلا انقطاع، فلما انبلج الصباح انسحب اليهود وردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً وخلفوا وراءهم مصفحة قد دمرت وبعض القتلى الذين لم يستطيعوا سحبهم معهم.

وعاد المجاهدون إلى أماكنهم والمناضلون المقادسة إلى بيوتهم، وعدنا إلى مقر القيادة فوجدنا ذلك المسؤول العربي الكبير يتصل بنا هاتفياً ليسألنا عن أنباء المعركة، فأجابه قائد حامية القدس بأن الله قد نصرنا وأعاننا على صد هجوم اليهود ولكن ذخيرتنا قد نفدت فإذا لم تصلنا نجدة عسكرية في هذا اليوم فإننا في خطر شديد إذا عاود اليهود الهجوم. وفي عصر ذلك اليوم وصلت قوة من المدفعية الصغيرة معها بعض الجنود، وبدأت تضرب الحي اليهودي من مشارف القدس، فارتفعت معنويات سكان القدس ودبّ الهلع في قلوب اليهود المحاصرين، وبعد ثلاثة أيام استسلم الحي اليهودي كما أسلفنا من قبل.

اتفق عدد من شباب القدس بعد انتهاء معركة الحي اليهودي على أن يتوجهوا إلى بعض العواصم العربية للإلحاح في إرسال بعض القوى العسكرية التي كانت قد وزعتها القيادة العربية العامة في أنحاء فلسطين إلى القدس حتى لا يتكرر الهجوم عليها، وجئت إلى دمشق وقابلت كبار المسؤولين، وحكيت لهم قصة القدس فتعجبوا وقالوا أن الأخبار التي تذاع من إحدى العواصم العربية وتنشرها الصحف تفيد بأن القدس

الحديثة قد استسلمت للعرب!.. فكيف تقول أنكم محاصرون في القدس القديمة؟ وأجبتهم بأنني قادم هذه الساعة من القدس وأنا أحكي لكم القصة على حقيقتها، فاتصلوا بأمين الجامعة العربية الذي كان موجوداً في تلك العاصمة العربية فأكد لهم صدق حديثي وأن الحالة سيئة، وهنا قال أحدهم: لقد دخلنا معركة فلسطين ونحن لا نعلم حقيقة قوة الأعداء!

فقال الآخر مستدركاً: لقد كنا نعلم حقيقتهم تماماً وهذا تقرير صفوت باشا قد تبين لنا انطباقه على الواقع، وهنا قلت له: إذا كنتم تعلمون حقيقة استعداد اليهود فكيف أعددتم جيش الإنقاذ لينقذ فلسطين وهو لا يزيد على أربعة آلاف غير مدربين تدريباً كافياً وليست له قوة جوية ولا مدفعية إلا مدفعية بسيطة جداً مع أن في القدس الحديثة وحدها عشرة آلاف مقاتل يهودي؟ فأجابني: إننا لم نرسل جيش الإنقاذ ليحارب بل ليقوم بمهمات مؤقتة!.. فقلت له: ولهذا كان أكثر جيش الإنقاذ يتنزه في مناطق عربية بحتة كنابلس بينما كانت حيفا ويافا وغيرها تسقط بأيدي اليهود وكانت مجازر دير ياسين تقع على سمع هذا الجيش وبصره!.. فسكتوا جميعاً...

ثم عدت إلى القدس مع الأخ الأستاذ عمر الأميري الذي جاءها لأول مرة.

وبعد أيام قليلة وقعت الهدنة المشؤومة وجاءتنا الأوامر من قيادة جيش الإنقاذ بدمشق بالانسحاب من القدس وتسليمها للجيش العربي بحجة أننا سنرسل إلى الجبهة السورية.

العودة إلى دمشق

كنا نشعر ونحن في قلب معارك القدس أن هناك مناورات تجري في الصعيد الدولي وفي أوساط السياسات العربية الرسمية العليا لجعل التقسيم أمراً مفروغاً منه، ولجعل القدس تخرج من أيدي العرب والمسلمين، فتشاورنا في كتيبة الإخوان فيما يجب علينا فعله بعد صدور الأوامر إلينا بالانسحاب من القدس كما أسلفت، فقرّ رأينا على أننا لا نستطيع مخالفة الأوامر الصادرة إلينا بمغادرة القدس لاعتبارات متعددة، وأننا بعد وصولنا إلى دمشق سنرسل بعض الإخوان خفية إلى القدس مرة ثانية لدراسة ما إذا كان بالإمكان عودتنا بصورة إفرادية لنتابع نضالنا في الدفاع عن فلسطين، وعدنا إلى دمشق مع سائر أفراد الحامية وقيادتها التابعة لجيش الإنقاذ، حيث تسلمت قيادة جيش الإنقاذ أسلحتنا، ووعدت باستدعائنا مرة ثانية عند الحاجة...

ووجدت من واجبي أن أكشف الحقائق التي تبينتها بنفسي في هذه المعارك لما وجدته من انخداع الجمهور بما يذاع ويكتب بإيحاء من مصادر عربية رسمية معينة، وألقيت في ذلك محاضرات في كل من دمشق وحمص وحماه وحلب واللاذقية ودير الزور وغيرها من المدن السورية، وذهل الجمهور لما أبديته من حقائق لم تكن معروفة لديهم تماماً، حتى شكّ بعضهم فيها ثم انكشف الأمر وتبين صدق ما أدعي عن العوامل الخفية والظاهرة التي كانت تسيِّر معركة فلسطين.

هذا بينما كان فريق من إخواننا المجاهدين قد عادوا إلى فلسطين خفية لتنفيذ ما اتفقنا عليه، ومن بين العائدين الإخوان: زهير شاويش، المرحوم كامل حتاحت، الشهيد ضيف الله مراد، وهنالك انضموا إلى فرقة التدمير في القدس حيث قاموا بأعمال بطولية رائعة من نسف الجسور والمستعمرات والسكك الحديدية التي كان يسيطر عليها اليهود، وحسبنا أن نعلم أن سكة حديد القدس ـ اللد لم يستطع اليهود إصلاحها واستعمالها إلا بعد مرور سنة ونصف على تدميرها. وظل إخواننا هؤلاء على تعاون مع فرقة الإخوان المسلمين المصريين بقيادة الشهيد أحمد عبد العزيز، وهنالك استشهد الأخ ضيف الله مراد في عمل فدائي يعد من أروع آيات الإيمان والفداء...



الدكتور السباعي في لباس الجهاد

بعض الملاحظات على معركة فلسطين

أقف عند سرد الوقائع التاريخية عند هذا الحد على أن أكتفي بتسجيل الملاحظات التالية:

١ ـ إن جيش الإنقاذ الذي ألَّفته الجامعة العربية ووكلت قيادته إلى فوزي القاوقجي لم يكن إلا تسكيتاً لشعور العرب الهائج في كل بلد، وأنه لم يكن يقصد منه جدياً أن يقاتل ويمنع سقوط المدن والقرى العربية بأيدي اليهود.

٢ ـ أن قيادة جيش الإنقاذ لم تخض معركة جدية واحدة في فلسطين، فالقاوقجي كان مقيماً قرب نابلس في منطقة عربية بحتة، وصفوت باشا وطه الهاشمي لم يدخلا فلسطين قط ولم يكونا يعرفان حقيقة الأوضاع في فلسطين بل كان مقر الهاشمي في دمشق وكان صفوت باشا يتنقل بين القاهرة ودمشق.

٣ ـ إن جيش الإنقاذ كانت مهمته تحطيم منظمة «الجهاد المقدس» التي انخرط فيها شباب الفلسطينيين وأبدوا من البطولات ما سجله لهم التاريخ بإعجاب وإكبار، وكان قائدها الشهيد البطل عبد القادر الحسيني يحاول أن يحصل من الجامعة على قدر كاف من الأسلحة فخاب مسعاه، حتى إنه حين جاء إلى معسكر قطنا ليأخذ معه الفوج الأول من إخواننا قال: إنني طلبت منهم مدفعاً واحداً فرفضوا وأعطوني مائة بندقية لا تصلح إلا لوقود النار، وهذه هي معي في السيارة، ونظرنا فإذا ببنادق من العهد الفيصلي في أعقاب الحرب

العالمية الأولى وأكثرها معصب بعصائب من الحديد، ثم تابع الشهيد قوله: إنني ذاهب إلى فلسطين لاسترد «القسطل» وسأموت ولن أترك بلادي فلسطين طعمة للأعداء!.

الشهداء

تيسير طه: كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ من خيرة الشباب إيماناً وأخلاقاً وذكاءً ونشاطاً، أصر على أن يلتحق بكتائب الإخوان منذ اللحظة الأولى، ولكن أقرباءه منعوه بالقوة إذ كان بينه وبين موعد زفافه أسبوع واحد، وكانت تخنقه العبرات كلما رآني قادماً من القدس إلى دمشق لبعض الأعمال المتعلقة بالمعركة هناك، وفي يوم **١٧** أيار (مايو) **١٩٤٨** حين قدمت دمشق لأخذ الذخيرة كما تحدثت في هذا المقال، فاجأني في المركز العام للإخوان وهو بلباس الميدان مع صديقه الحميم الأخ الدكتور زهير البيك وكانا يدرسان الطب في السنة الرابعة في كلية الطب بجامعة دمشق، وأصرَّا على الذهاب معي في نفس السيارة التي أعود فيها إلى القدس، فسألته: هل رضي والدك؟

قال: نعم، قلت: كيف استطعت أن تقنعه؟ قال: لقد كان يقرأ القرآن اليوم بعد صلاة الفجر وأنا أسمع، فتلا قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ فقلت لأبي: ألا تؤمن بما جاء في هذه الآية الكريمة؟ قال: بلى! قلت: فلمَ تمنعني من الجهاد في فلسطين؟ قال: فسكت قليلاً ثم قال لي: اذهب فالآجال بيد الله.

وغادرنا دمشق مع الأخوين تيسير وزهير البيك، وكان الشهيد تيسير في حالة من الفرح لا توصف، ووصلنا عمان قرب العصر، وأخذت الذخيرة منها كما تحدثت سابقاً وأسرعت بالسفر إلى القدس بعد الغروب على أن يلحق بي الأخوان فيما بعد، وناما ليلتهما تلك في عمان، وبعد عصر اليوم الثاني في ١٨ أيار وصلا إلى القدس، وكان المستشفى يغص بجرحى المجاهدين، فأقنعتهما بأن يكون عملهما في المستشفى لأننا أحوج إليهما فيه من ميدان القتال، ونبهت الأخ المشرف على السلاح بأن لا يسلمهما سلاحاً مهما أصرًا على ذلك، وقمت في تلك الليلة بجولة أتفقد فيها مراكز حاميات الإخوان، ثم عدت إلى مقر القيادة قريباً من الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، ونمت ـ كعادتنا ـ في ثياب الميدان الكاملة استعداداً لكل طارىء، وفي الساعة السادسة صباحاً أيقظني الأخ لطفي السيروان قائلاً: حبذا لو تذهب إلى المستشفى! قلت: وهل هنالك شيء جديد؟ قال: لقد جرح الأخ تيسير! فذهلت وقلت: من أين أخذ السلاح؟ وكيف كان ذلك؟

قال: لقد وردتنا في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل إشارة بطلب نجدة سريعة لحامية «باب العامود» فأيقظنا عدداً من المجاهدين وأصر تيسير على أن يذهب هو وصديقه زهير معهم، وذهبا مع المجاهدين إلى مكان المعركة، واستمر تيسير ساهراً في المعركة حتى بزغ الفجر، فقام مع إخوانه لأداء صلاة

الصبح بعد أن تيمموا إذ لم يجدوا ماء، فلما أتموا الصلاة عاد تيسير إلى مكانه فإذا برصاصة تخترق جمجمته من جبهته!

لما قصّ علي الأخ لطفي السيروان ذلك نهضت مسرعاً معه إلى المستشفى فوجدت الشهيد في غيبوبة تامة وهو يحشرج، وسألت كبير الجراحين هل هناك أمل من إجراء عملية جراحية تنقذ حياته؟ فأجابني بالنفي، ومع ذلك فقد أجريت له عملية جراحية سريعة تبين منها أنه أصيب برصاص «دمدم» الذي يمزق كل ما حوله، وبعد ساعات صعدت روح الشهيد إلى بارئها راضية مرضية، وأجمع رأي إخواننا على أن نحمل جثمانه إلى دمشق وامتطيت سيارة تحمل الجثمان حيث أودعناه في إحدى غرف المركز العام للإخوان في السنجقدار ثم شيع إلى مرقده الأخير في «دوما» في موكب رهيب احتشدت له دمشق ودوما رحمه الله وأجزل مثوبته.

ضيف الله مراد: كان رحمه الله في شرطة دمشق، فلما تجهزنا للذهاب إلى معسكر قطنا جاءني يطلب إلي أن أتوسط له مع مدير الشرطة العام (وكان يومئذ حسني الزعيم) للسماح له بالسفر معنا إلى فلسطين حيث رفض الموافقة على ذلك، فاتصلت بحسني الزعيم ورجوته السماح له فوافق، وجاءنا الشهيد رحمه الله فرحاً بهذه الموافقة، واستمر في المعركة حتى عدنا إلى دمشق أخيراً، فأصر على أن يكون مع العائدين إلى القدس لدراسة الموقف هناك، وجاءني من والدته رجاء بأن لا أسمح له بالعودة لأنه أكبر إخوته وهو يعيلهم مع والدته، فحدثته بذلك

فأبى. وبعد جدال طويل بيني وبينه قال لي بلهجة حازمة: أستحلفك بالله أن تسمح لي بالعودة فإني والله أشم رائحة الجنة فلا تمنعني من الشهادة!... ودمعت عيناه وكانت لحظة رهيبة دمعت فيها عيناي أيضاً لجلال روعة الإيمان والفداء، ثم سافر مع إخوانه، وهناك في «صور باهر» قرب بيت المقدس أكرمه الله بالشهادة كما كان يتمنى، تغمده الله برضوانه.

الرقيب هاشم: من أرمناز من محافظة حلب، وكان أول من استشهد من إخواننا في القدس حين كان في حامية «حي القطمون» وله ثلاثة أولاد صغار، وقد دفن في القدس رحمه الله.

محمد قباني: كان بطلاً من أبطال المصارعة في النادي الرياضي للإخوان بحمص، وكان مثالاً للجرأة والشجاعة، دفن في جوار المسجد الأقصى رحمه الله.

محمد عرنوس: من اللاذقية كان يعيل أختيه وأمه، وقد استشهد في معركة الحي اليهودي ودفن في جوار المسجد الأقصى رحمه الله.

محمود الدندشي: من حمص وأب لعدة أولاد صغار، استشهد في معركة الحي اليهودي ودفن في جوار المسجد الأقصى رحمه الله.

محمد الصباغ: استشهد في معركة الحي اليهودي ودفن في جوار المسجد الأقصى رحمه الله.

راشد طالب: استشهد في معركة الحي اليهودي ودفن في جوار المسجد الأقصى رحمه الله.

نايف حسن عودة: استشهد في معركة الحي اليهودي ودفن في جوار المسجد الأقصى رحمه الله.

راضي الجوهري: كان من بين الذين التحقوا بنا من إخوان نابلس في فلسطين. وقد استشهد في معركة الحي اليهودي ودفن في جوار المسجد الأقصى رحمه الله.

وبعد فهذا جزء من الحديث عن دور الإخوان السوريين في معركة فلسطين، أما إخوان مصر فقد نشر الحديث عنهم في كتاب خاص، وأما إخوان الأردن فإن عليهم أن ينشروا صفحات جهادهم في معركة فلسطين استكمالاً لهذه الحلقة التاريخية من جهاد الإخوان المسلمين.



دعوة الإسلام
واقعية لا خيال

المقدّمة

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف: ١٠٨].

«في الاعتبار غِنىٰ عن الاختبار».

ويبقىٰ مصراً علىٰ أن الإسلام دين واقعي، وفي أدلته ما يؤكد ذلك وكلماته أصفىٰ من الدمعة لكنها تصعد ملتهبة ولا تخشى الهبوط. . .

وهو يتمثل قول الشاعر:

ولست أبالي أن تجر صراحتي جفاء عظيم أو عداوة غضبان
إذا المرء في دين وعرض ومبدأ تسامح أو حابىٰ فليس بإنسان

يؤكد د. السباعي على أن دعوة الإسلام واقعية؛ لأنها ذاتية فهي تنبثق من طبيعة الأمة، وتنسجم مع خصائصها، وتقدمية فهي من أكثر الدعوات مسايرة لتطور الحياة وتقدم الحضارة، كما أنها شاملة في إصلاحها لكل نواحي الحياة في المجتمع.

وكما قيل: «في الاعتبار غنىٰ عن الاختبار»، فإن المشهد المعاش يثبت حاجة البشرية إلى الإسلام، وإذا كان للغرب حضارة وتقدم فإن في روحه خواء، ولن يملأ ذلك الفراغ إلا إسلامنا، إسلامنا المعتدل الرحيم.

يقول د. السباعي:

«وسبيل الإنسانية المستقيم ليس في رفاهية العيش وتقدم الاختراعات فحسب بل هي مع ذلك استقامة ضمائر الناس وسمو أخلاقهم وحسن صلتهم بالله العلي العظيم.

إننا لا نحصر إصلاحنا في داخل أرضنا بل نريده عاماً للناس جميعاً وللشعوب قاطبة، ونحن لا نحصر همنا في إطعام الجائع أو كسوة العاري أو إيواء المشرد، بل نريد مع ذلك تهذيب الخلق وإصلاح القلب ورد الروح الحائرة التائهة إلىٰ خالقها العظيم».

إن الأحداث الأخيرة تؤكد على وجوب إبراز خطاب الاعتدال والتسامح والتفهم، ولعل في أوراقنا هذه التي نقدمها وفاء لرجل أحب شعبه بل والإنسانية جمعاء، وهي أيضاً نوع من الوفاء للالتزام أمام قرائنا الذين مضوا معنا يشحذون همتنا على نشر تراث المفكر الوسطي وإلىٰ لقاء جديد مع تراث نافع مما كتب المرحوم د. السباعي.

الناشر



دعوة الإسلام
واقعيـــة لا خيـــــال

١ ـ مقياس الواقعية في الدعوات:

وقف أحد الخطباء في حفلة كبرى أقامها أحد الأحزاب الكبيرة في البلاد بمناسبة العدوان الفرنسي في ٢٩ أيار (مايس) وتعرض للدعوات القائمة في وطننا وهاجم الدعوات الثلاث: القومية السورية والشيوعية والدعوة الإسلامية، ونَعَتَ الأولى بأنها ضيقة الأفق، والثانية بأنها عالمية تتأثر بتوجيه أجنبي، والثالثة أي: (الدعوة الإسلامية) بأنها خيالية لا يمكن أن تعيش ولا بد من أن تموت!.. وقد رأيت أن يكون حديثي إليكم في هذه الليلة عن هذه المقارنة الخاطئة، لا لأن الدعوة الإسلامية تهاجم أول مرة في هذه البلاد، فلقد سبق هذا الخطيب كثيرون هاجموا الإسلام ودعوته، ولكن لأن الحزب الذي ألقيت في احتفاله هذه الكلمة لم يكن له سابقة عهد في البحث في مثل هذه المواضيع الشائكة، فعهدنا به حزب سياسي لا علاقة له بالدين، ولا ولع لأصحابه بمقارنة العقائد وتبني بعضها ومهاجمة بعضها الآخر. هذا شيء، وشيء آخر أن الخطيب نفسه لم يكن يعهد عنه ميل سافر إلى محاربة الدعوة الإسلامية، وله في أوساطها أصدقاء يحسنون به الظن، فإذا

جاء بعد ذلك يهاجم الدعوة الإسلامية بهذا الأسلوب في حفل كبير يضم نخبة القوم في هذه المدينة كان ذلك مدعاة للغرابة والتعليق.

ملاحظات عابرة:

وأول ما يلاحظ على هذا الخطاب أنه قرن الدعوة الإسلامية بالشيوعية والقومية في وجوب طرحها ونبذها والحكم عليها بالبطلان والخسران، وهذه جرأة غريبة في بلد كدمشق، وفي وطن يحكمه دستور يجعل الاستمساك بالإسلام ومُثُله العليا من واجبات الدولة، وينص على إنشاء العلاقات الأخوية بين سوريا وبين العالم الإسلامي!.. ويعتبر الفقه الإسلامي هو المصدر الرئيسي للتشريع.. ولست أعتقد أن هنالك إساءة إلى الإسلام في مثل هذا البلد أشد من أن تقارن الدعوة إليه بالدعوة إلى الشيوعية والقومية السورية!

ويلاحظ أيضاً أن هذا الخطيب حين تحدث عن الدعوات الثلاث التي يهاجمها لم يجرؤ أن يذكر الشيوعية باسمها، ولا القومية السورية باسمها، وأنما ذكرهما بخصائصهما، بينما جرؤ على ذكر الدعوة الإسلامية باسمها الصريح.. فهل ندري سر هذه الجرأة على دعوة الإسلام، والجبن أمام الدعوات الأخرى؟!. وهل بلغ الأمر ببعض الناس أن يجرؤ على مهاجمة دعوة تلتقي مع عقيدة الشعب ودستوره، ثم هم في الوقت ذاته جبناء أمام الدعوات الأجنبية في مصادرها الفكرية

والسياسية وخصوصاً أمام دعوة يحاكم رجالها بتهمة التآمر على سلامة الدولة وعروبتها؟ ألهذا الجبن أمام دعوات تتنكر لعروبة البلاد ودين الأمة ودستور الدولة، والجرأة على دعوة تلتقي مع خفقات قلوب الشعب ومبادىء دستوره وشرعة دولته، سبب معقول يبرره الذوق والمنطق عند أمثال هؤلاء الناس؟!

ونحن هنا لا نريد أن ندعي أن رأيه هذا وجرأته على دعوة الشعب وعقيدته، يمثل الحزب الذي كان يتكلم في مهرجانه، ولا أن ندعي أن رجال هذا الحزب كانوا راضين عنه في مهاجمة الدعوة الإسلامية علانية في مثل هذه المناسبة التي اجتمعت فيها مختلف طبقات الشعب وفيهم من علماء الشريعة وقضاتها عدد غير قليل، ولكنها ظاهرة جديدة في خطباء الحزب وحفلاته العامة أحببنا أن نلفت إليها المسؤولين فيه ونحن لنا من بين رجاله أصدقاء نعتز بصداقتهم ونحسن الظن باتجاههم الفكري وانسجامهم مع أمتهم في عقائدها وأفكارها..

مقياس «الواقعية» في الدعوات:

ننتقل من هذه الملاحظات العابرة إلى مناقشة ما زعمه الخطيب من «خيالية» الدعوة الإسلامية، وما تنبأ به من «موتها» فما هو مقياس الواقعية والخيالية في الدعوات، وما هي علائم الحياة والموت في مذاهب الإصلاح؟

إني لم أجد لذلك أصلاً أرجع إليه في بحوث المعنيين

بالدعوات والمذاهب الفكرية والاجتماعية، ولكن التجربة في حقول الدعوة، واستقراء التاريخ القديم والحديث ودراسة الدعوات والمذاهب التي قامت في مجتمعات متعددة ثم انقرضت وبادت، أو تحولت عن مبادئها وتبدلت في مناهجها، إن ذلك كله يجعل بين أيدينا أصلاً صحيحاً نبني عليه الحكم في صلاحية دعوة ما للحياة أو استحقاقها للموت، ونفرق بين الدعوة «الواقعية» والدعوة «الخيالية»، وأعتقد أننا في هذا المقياس الذي نضعه لا يختلف فيه معنا عالم بطرق الإصلاح ملم بحقائق التاريخ والاجتماع، وإن كانت الآراء قد تختلف في تطبيق هذا المقياس على دعوة دون دعوة. . .

إن مقياس «الواقعية» في الدعوات، وعلائم الحياة فيها هي أن تجتمع لها ثلاثة عناصر رئيسية:

١ ـ الذاتية. ٢ ـ التقدمية. ٣ ـ الشمول.

١ ـ الذاتية:

ونعني بالذاتية أن تكون الدعوة منبثقة من طبيعة الأمة منسجمة مع خصائصها، مستوحاة من حاجاتها حتى تكون تعبيراً روحياً صادقاً عن آمالها وطموحها، وهذا شرط ضروري لاستجابة الأمة للدعوة، وحياتها في قلوبها ومشاعرها، وما من دعوة في التاريخ القديم والحديث نجحت إلا حين توفر لها هذا العنصر الأساسي الأول، وما من دعوة أخفقت ولا حركة إصلاحية قضي عليها أو اضطرت إلى تعديل مبادئها إلا لأنها

فقدت هذا العنصر، وأمامنا حركتان بارزتان في العصر الحديث على هذا المقياس، فكلنا يعلم أن أمان الله خان ملك الأفغان السابق، فقد عرشه لأنه حاول إصلاح الأمور الاجتماعية في شعبه إصلاحاً لم يتفق مع عقيدة الشعب ولم ينسجم مع ذاتيته، لقد بدأ أمان الله خان إصلاحه بإخراج المرأة الأفغانية من بيتها وحجابها وحشمتها إلى ميادين الرقص والاختلاط والتحرر من كل آداب الحشمة التي يحرص عليها شعب متدين محافظ كالشعب الأفغاني. . لقد أخفقت محاولته الإصلاحية لأنه أراد أن ينقل ما وقع في تركيا في عهد أتاتورك نقلاً حرفياً إلى الأفغان متجاهلاً طبيعة الأفغاني ومحافظته وغيرته الشديدة على عرضه، ومتجاهلاً أيضاً وضع المرأة التركية واختلاطها قبل حركة كمال أتاتورك، فأدى هذا الجهل أو التجاهل لطبائع شعبه وخصائصه إلى أن يفقد عرشه ثم إلى أن تموت حركته التي كان ينوي أن يقوم بها. . وإليكم مثلاً آخر في حركة كمال أتاتورك، فلقد حرص قبل كل شيء على أن ينتزع شعبه من أحضان الإسلام انتزاعاً بالقوة فلم يفلح. . لقد حرم تعليم الدين في المدارس، وأزال الصبغة الإسلامية عن الدولة في تركيا، ووضع للأحوال الشخصية قانوناً هو صورة طبق الأصل عن القانون السويسري، وهو الذي يجعل زواج المسلمة بغير المسلم جائزاً، وعقود الزواج مدنية، ونصيب المرأة مثل نصيب الرجل في الميراث وغير ذلك. . فماذا كانت النتيجة. . لقد عادت تركيا الرسمية إلى الاعتراف بالإسلام بعد ثلاثين عاماً

من ثورة كمال أتاتورك على الإسلام.. لقد أعادت تعليم الدين إلى المدارس، وسمحت باللغة العربية في الأذان وخطب المساجد وأنشأت كلية للدين لإخراج الأئمة والخطباء والعلماء، أما القانون السويسري للأحوال الشخصية فلم يطبقه الشعب، ولم يقع حتى اليوم أن امرأة تركية مسلمة تزوجت غير مسلم.. وهكذا انهزمت حركة الإصلاح الكمالي في الناحية الدينية أمام عقيدة الشعب التركي لأنها لم تكن ذاتية منسجمة مع روحه ودينه وشخصيته..

٢ ـ التقدمية:

ونعني بها أن تكون الحركة الإصلاحية أو الدعوات الاجتماعية مسايرة لتطور الحياة وتقدم الحضارة.. وهذا شرط أساسي ثان. فإن طبيعة الحياة لا تقاوم وسنة الله في تطور الإنسان وتقدمه لا تتبدل، فمن وقف في وجه الحياة صرعته الحياة، ومن أراد أن يؤخر عجلة الزمن ويجرها إلى الوراء، تقطعت يداه والعجلة تغذ السير لا تبالي بمن تخلف عنها، وما نجحت حركة في القديم والحديث إلا حين قامت على هذا العنصر، ولا أخفقت دعوة إصلاحية ولا مذهب اجتماعي إلا حين فقد هذا العنصر، وأمامنا أمثلة من التاريخ القديم والمعاصر على هذا.. فكم من دعوة إصلاحية قامت في المجتمع الإسلامي القديم تبغي إصلاح أخلاقه أو إعادة السلام والسعادة إلى ربوعه فأخفقت لأنها كانت تدعو إلى عزلة، أو

تبعث على فرار من الحياة، تتنكر لما وصل إليه العقل الإنساني من تقدم في العلم أو الحضارة.. وفي عصرنا الحديث لقد قامت الدعوة السنوسية على أنها حركة إصلاح عامة للعالم الإسلامي كله ولكنها لم تخرج بعد خمسين سنة من قيامها عن محيطها الذي ولدت فيه؛ لأنها كانت حركة إصلاح روحي لا تهتم بتطور الحياة ولا تخضع للظروف الجديدة التي وجد العالم الإسلامي نفسه محاطاً بها من جراء اختلاطه بالحضارة الحديثة وخضوعه لسلطانها السياسي أو العسكري أو الفكري.

٣ ـ الشمول:

ونعني به أن تحتوي الدعوات الإصلاحية مناهج الإصلاح لكل نواحي الحياة في المجتمع الذي تقوم فيه، إن المجتمع وحدة متماسكة، فالأخلاق لا تنفصل عن الاقتصاد، والسياسة لا تنفصل عن العلم، فالدعوة إلى إصلاح الأخلاق في أمة لا يمكن أن تنجح إلا إذا رافقها إصلاح الأوضاع الاقتصادية فيها، والدعوة إلى تحرير الأمة سياسياً من الاستعمار أو الطغيان لا تنجح إلا إذا رافقها إصلاح الأخلاق ونشر العلم وتهذيب النفوس.. إن حركتنا السياسية قد استنفدت من جهود الأمة نصف قرن، ولو رافقها إصلاح أخلاقي واقتصادي وعلمي لكانت هذه المدة كافية لأن تجعلنا في مقدمة الأمم قوة وحضارة وكرامة.. وجهود العرب في قضية فلسطين لو كانت منسجمة في الميادين الأخلاقية والاقتصادية مع الميدان

العسكري والسياسي لما كان في الدنيا اليوم شيء اسمه إسرائيل.. ولقد أجمع الباحثون عن أسرار هزيمتنا في فلسطين أن من أكبر أسباب هذه الهزيمة إهمال الإعداد النفسي والروحي والخلقي والاجتماعي لشعب فلسطين والشعوب العربية كلها.. إن هزيمتنا في معركة فلسطين كانت هزيمة أخلاق ونظام وعلم قبل أن تكون هزيمة حرب وسلاح وسياسة.

وإليكم مثلاً آخر من واقعنا القريب، فهذه الانقلابات الديكتاتورية التي تزعم أنها تقوم من أجل الإصلاح، ماذا استطاعت أن تحقق من الإصلاح؟ لقد رأينا الديكتاتورية الزائلة في سورية، ونحن نرى الديكتاتورية القائمة في مصر، فهل استقام لها الإصلاح الذي نادت به يوم قامت؟ إنني لا أريد أن أناقش هذا الأمر من جميع نواحيه فله مقام آخر، ولكني أريد أن أذهب إلى أنها حققت برنامجها الإصلاحي الزراعي أو العسكري، فهل هذا هو كل شيء في الأمة؟ إن الأمة ليست قطعة من حديد حتى ينحصر إصلاحها كله في جعل هذه القطعة أقوى ما تكون صلابة ومقاومة! وليست أرضاً للزراعة حتى ينحصر الإصلاح كله في جعل هذه الأرض أنضر ما تكون جمالاً وأكثر ما تكون إنتاجاً! ولكن الأمة واقع حي من عقيدة وأدب وفكر وخلق وقوة وإنتاج، فإذا نما إنتاجها أو ازدادت قوتها المادية ثم هزلت في الفكر والأدب والعقيدة والخلق كانت كالرجل الرياضي يملك من عضلات اليدين ما يقاوم بهما أقوى العضلات، ولكنه ضعيف البصر، معتل المقدرة،

محدودب الظهر، فكيف يقوم مقام هذا في عالم الرياضة؟ لقد انهار الإصلاح في عهد الديكتاتورية السورية لأنه قام على رِجلين صناعيتين ولم يكن له قلب ولا عقل، وسينهار الإصلاح المزعوم في عهد الديكتاتورية المصرية لأنه استبدل الرِّجلين الصناعيتين برجليه الطبيعيتين، وقطع ذراعيه القويتين ليعمل بيدين كرتونيتين، وقلع عينيه الجميلتين ليضع مكانهما عينين خزفيتين.. إنه نتيجة كل إصلاح أعرج لا يستكمل كل وسائل البناء ليجدد كل مواطن الفساد..

وبعد فهذا المقياس الصحيح لواقعية الدعوات وصلاحيتها للحياة فما هو نصيب الدعوات الأربع التي تحتل ساحة النشاط الفكري والسياسي والاجتماعي في بلادنا؟ ونعني بها: القومية السورية، والشيوعية، والقومية العربية، والدعوة الإسلامية..

وسنحلل كل دعوة من هذه الدعوات على ضوء هذا المقياس وسنرى مدى واقعيتها واستحقاقها للحياة أو الموت. كل ذلك بأسلوب هادىء بعيد عن التحيز والعصبية العمياء...

٢ ـ انتفاء الواقعية في دعوة القوميين السوريين:

تتلخص دعوة القوميين السوريين في أن سوريا بحدودها الطبيعية المعروفة ـ وقد أدخلوا أخيراً فيها العراق ولم تكن داخلة من قبل عندهم ـ تشكل وحدة جغرافية طبيعية تفصلها عن بقية الأقطار العربية حدود طبيعية من جبال وصحاري وأنهار، وأن السوريين «أمة» متميزة عن العرب بخصائصها وتاريخها،

وأنها إحدى «الأمم» التي تتكلم اللغة العربية، وهم يعتبرون العصر الفينيقي هو أزهى العصور في تاريخ سوريا ولا يجدون الفتح العربي إلا فتحاً أجنبياً، ولا يرون في التاريخ العربي في سوريا بعد هذا الفتح إلا تاريخاً سورياً خالصاً، فمعاوية قد «تَسوْرَنَ» أي: صار سورياً لإقامته في دمشق عشرين سنة قبل الخلافة، وأمجاد الأمويين هي أمجاد سورية، ولقد حدثني أحد أقطابهم ـ قبل أن يُدخلوا العراق إلى سوريا ـ أن النزاع بين علي ومعاوية إنما هو نزاع بين القومية السورية والقومية العراقية!. .
ولهم كلام عن أثر سوريا في حضارة العالم القديم يخرج عن حدود البحث العلمي إلى الغلو الخيالي المتطرف الذي عرفته النازية والفاشستية إبان مجدها وصولتها، فسوريا عندهم صانعة التاريخ وخالقة الحضارات، وكُتاب سوريا في العهد القديم رواد الفكر الإنساني وأساتذة العالم، حتى إن قصة الطوفان في التوراة والقرآن قصة سورية اخترعها أديب سوري قديم ثم أخذها عنه كاتبو التوراة ومنها أخذها القرآن الكريم!. . وهكذا يستمرون في هذه «الهستيريا» القومية الخيالية حتى يبلغوا حداً مضحكاً.

ولست هنا بصدد المناقشة العالمية لنظرتهم القومية وبيان ما فيها من زيف علمي وأخطار تاريخية وإغراق في الخيال والوهم، ولكن بصدد بيان الواقعية في هذه الدعوة بناء على العناصر الثلاثة التي يجب توفرها في كل دعوة حتى تكون صالحة للبقاء وهي: الذاتية والتقدمية والشمول، فما نصيب القومية السورية من هذه العناصر الثلاثة؟

«الذاتية» في القومية السورية:

تفقد القومية السورية عنصر «الذاتية» في ناحيتين أساسيتين: الأولى في فكرتها عن القومية ونظرتها إلى الفكرة العربية، والثانية: في نظرتها إلى الدين..

أما فكرتها عن القومية واعتبارها السوريين أمة متميزة عن أبناء البلاد العربية كما يتميز الفرنسيون عن الإنكليز والروس عن الألمان، فإنها تصدم شعورنا الذاتي بواقعنا العربي الذي عشنا فيه أربعة عشر قرناً على الأقل منذ الفتح الإسلامي حتى اليوم، ونجد حين نفتش في شعورنا العميق وإحساسنا الذي يرتبط بآبائنا وأجدادنا عبر التاريخ.. لا نجد أي حنين يهزنا إلى الماضي السحيق الذي يعتز به القوميون السوريون، لا نهتز لهذا الماضي الذي يمثله الفينيقيون بوثنيتهم وخمرهم وآلهتهم وعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم.. فكل ذلك قد مات في نفوسنا منذ عشرين قرناً أو يزيد.. وإنما نجد في نفوسنا حنيناً يهز ضمائرنا وعواطفنا نحو التاريخ العربي منذ الفتح الإسلامي في هذه البلاد.. فأمجاد الأمويين، وحضارة العباسيين، وأبطالنا الفاتحون، وعباقرتنا المتشرعون، وآباؤنا الخالدون، هم الذين تطرب نفوسنا لذكرياتهم وتاريخهم والحديث عنهم.. ومن العجيب عند هؤلاء القوميين أن للأرض عندهم تأثيراً بحيث تجعل من معاوية «سورياً» وأنه أقام في سورية بضعة عشر عاماً، وبحيث تجعل الأرمني الذي يعيش في بلادنا عشر سنوات «سورياً» بروحه وقوميته.. ثم ينكرون تأثير العقيدة

واللغة والتاريخ المشترك خلال أربعة عشر قرناً علينا نحن سكان البلاد السورية. فالمسيحيون منا عاشوا في ظل المسيحية عشرين قرناً والمسلمون عاشوا في ظل الإسلام أربعة عشر قرناً.. والإسلام والمسيحية حرب على الوثنية التي كان عليها «الفينيقيون» بما فيها من آداب وعقيدة ونظم وتقاليد.. إن الإسلام والمسيحية أبعدانا عن الفينيقية الوثنية بضعة عشر قرناً.. ومع ذلك فلا يريد أن يعترف القوميون السوريون بهذه الحقيقة الدامغة، ويتنكرون لهذا الواقع الذي عشنا فيه خلال هذه الأحقاب الطويلة في التاريخ في الوقت الذي يجعلون للأرض والتراب والجو أثراً سحرياً يحوِّل الإنسان خلال عشر سنوات من قومية إلى قومية ومن تاريخ إلى تاريخ.. ومثل ذلك يقال عن «عروبتنا» التي عشنا في ظلالها ما لا يقل عن أربعة عشر قرناً.. فاللغة والعادات والتاريخ المشتركين كل ذلك يربطنا بأبناء البلاد العربية ربطاً محكماً يجعلنا أبناء أمة واحدة فكيف جاز أن ننتزع من أحضان هذا الواقع الذي عشنا فيه ألفاً وثلاثمائة وسبعون عاماً على الأقل تقدير أخوة تشترك في توجيه الحضارة ونشر العلم كما تشترك في المصائب والآلام؟ وكيف جاز أن ننتزع من واقعنا الحاضر الذي نشعر به في أنحاء وطننا العربي وهو أن نكباتنا ومشكلاتنا وآمالنا وآلامنا واحدة؟ كيف جاز أن ننتزع من هذا الواقع الحي الذي يتصل بعضه ببعض ما لم يقع مثله لأية أمة من الأمم الغربية اليوم، لنعيش مع واقع ماض ميت انقطع ما بيننا وبينه من صلات في اللغة والدين

والعقيدة والتقاليد والعادات منذ أكثر من ألفي سنة؟.

وما هو الحاجز الذي يحجز بيننا نحن السوريين وبين المصريين والحجازيين والمغاربة؟.. وما هي الخصائص النفسية والذاتية والإقليمية التي جعلتنا نحن السوريين أمة تختلف عن إخواننا من أبناء البلاد العربية؟.

إننا لنتساءل بعد هذا كله في أنفسنا عن مبادىء هذه القومية التي تريد أن تقطعنا عن حاضرنا وواقعنا وإخواننا وعالمنا الكبير، فنجد أنفسنا في نفرة من هذه المبادىء وفي استغراب منها وسخرية بها.. وحسبنا هذا دليلاً على فقدان الذاتية في دعوة القومية السورية.

وأما موقف القومية السورية من الدين فهو دليل أقوى على فقدانها عنصر الذاتية. فنحن أمة متدينة تدين أغلب جماهيرها بالإسلام.. والإسلام نظام ودولة، ينظم شؤون الحياة دقيقها وجليلها.. وهو واضح الحدود والمعالم والمناهج، دين مرن يساير سنة الله في تطور الحياة الكريمة في ميادين الحق والخير والرفاهية والسعادة.. هذا نؤمن به ونحس به في أعماق نفوسنا وتنسجم به شخصيتنا انسجاماً تاماً بين الحاضر والماضي، وسيظل كذلك في المستقبل حتى يرث الله الأرض ومن عليها.. ولكن دعوة القوميين السوريين لا تنظر إلى الإسلام بهذه النظرة.

فهي تعلن كما جاء في نشوء الأمم لـ«سعادة» بأن فكرة

الألوهية إنما اخترعها الإنسان وهو بذلك يذهب إلى ما تقوله الفلسفة المادية التي تنكر الله وعالم ما وراء الطبيعة.. وهذا الكتاب هو إنجيل القوميين السوريين.

وهي تعلن أيضاً ـ كما جاء في الطبعة الأولى من كتاب نشوء الأمم ـ إن الإسلام دمه جامد وإنما الذي جعله متطوراً هم الفقهاء والخلفاء (كذا).. هكذا يتحدث زعيم القومية السورية عن الإسلام كما نتحدث نحن عن قبائل الماو ماو!..

وهي تعلن عن مفهوم جديد للإسلام حين تعلن أننا جميعاً ـ مسلمين ونصارى ـ مسلمون، منا من أسلم لله بالإنجيل، ومنا من أسلم لله بالقرآن.. ولولا الحياء من الشعور الملتهب ضد الصهيونية لزادوا على ذلك: ومنا من أسلم لله بالتوراة.. وهكذا يمسخون هذا الإسلام ويتلاعبون بحقائقه وبمفهومه، وذلك أكبر دليل على مبلغ احترامهم له أو إيمانهم به.

ولقد كشفت الوثائق المعلنة أخيراً عن اعتقادهم بأن الأنبياء عامة ومحمداً ﷺ خاصة، أرسلوا لأزمانهم فقط، والزعيم سعادة هو نبي هذا الزمن فلا وجه للمقارنة بينه وبين الأنبياء!.. وهذا كفر بالأديان الإلهية قاطبة، إن صح صدوره عنهم كان ذلك دليل البون الشاسع الذي يفصلهم عن هذه الأمة في عقيدتها ودياناتها..

ومن بدهي القول أن نذكر هنا مناداتهم بفصل الدين عن

الدولة وهي الفكرة التي لا يقرها الإسلام، والتي تجعله مشوهاً مشلولاً عن قدرته على تنظيم المجتمعات وإقامة الحضارات.

وهكذا تفقد القومية السورية أبرز عناصر الواقعية في الدعوات حين نتلمس آثارها في نفوسنا فلا نجد لها إلا صدّاً وإعراضاً واستنكاراً.

«التقدمية» في القومية السورية:

قد تكون القومية السورية في مبادئها الاجتماعية والاقتصادية مع مخالفتنا لها في حدود التقدمية التي تنادي بها، ولكنها في تحديدها للوطن السوري وتضييقها مدى حيوية الأمة وإمكانياتها، تعود بنا القهقرى إلى عصر الجمهوريات اليونانية حين كانت كل مدينة جمهورية قائمة بذاتها لها نظمها وقوانينها. فهي تريد أن تقصر عالمنا العربي أو الإسلامي الكبير إلى عالم صغير محدود في عصر يتميز بأنه عصر الانطلاق الواسع نحو التعاون الفكري أو السياسي بأوسع حدوده، ففي عصر «الاتحاد الأوروبي» و«حلف الأطلسي» والأحلاف والتكتلات تجمع بين الأمم المختلفة في قومياتها ما دامت تلتقي حول مصلحة واحدة، تقوم دعوة القوميين السوريين لتعزلنا عن مجموعتنا الكبرى، ولنعيش في حدود أقل رقعة من أصغر ولاية في أمريكا مثلاً. وهكذا تعود بنا القومية السورية القهقرى إلى حيث انكماش الأمم الصغيرة على نفسها وانطواء البلاد الصغيرة داخل حدود وهمية، إن كانت في الماضي تدفع عنها الأذى،

فهي تقتلنا اليوم في كل مجالات النشاط الإنساني والسياسي الاجتماعي..

«الشمول» في القومية السورية:

لا تعنى القومية السورية بالمبادىء الأخلاقية التي تنادي بها شرائع الله والنظريات الأخلاقية العالمية، وهي فيما نرى «ميكافيلية» الأسلوب مادية النزعة، تستهتر بالقيم الروحية والأخلاقية كما نشاهد آثار ذلك في الفرص التي تهيئها لإغراء الشباب والفتيات بالانضمام إليها في حلقات ماجنة تلعب الخمرة فيها بالرؤوس وتنطلق فيها الغرائز جامحة مسترسلة لا تقف عند حدود الشرائع والآداب. والقومية السورية تقصر إصلاحها المزعوم على جمع شتات السوريين وجعلهم أمة قوية كما يدعون دون أن تعنى بالإصلاح الأخلاقي الذي لا تنهض أمة بدونه ولا تستقيم نهضة إلا على أساس قوي من مبادئه.. فهي قاصرة غير شاملة كالبيت الذي يراد لإحدى غرفه أن تكون أقوى الغرف بنياناً وأجملها مظهراً، من حيث يراد للغرف الأخرى الإهمال والتداعي.

وبهذا التحليل السريع للقومية السورية من حيث احتوائها على العناصر الأساسية للواقعية المطلوبة في الدعوات، لا نتردد في الحكم على هذه الدعوة بأنها دعوة عرجاء هوجاء إن كتب لها الحياة في غفلة المجتمع، واضطراب الدولة وفوضى التوجيه، وانعدام التنظيم الحزبي المستقيم، فإنها لن يكتب لها

الحياة يوم تزول كل هذه الظواهر من واقعنا الاجتماعي ولا بد من أن تزول بحول الله . .

٣ ـ هل تتضمن الشيوعية عناصر الواقعية في الدعوات؟

نتنقل بعد ذلك إلى تحليل مبادىء الشيوعية من حيث توفر العناصر الأساسية للواقعية التي يجب أن تتصف بها الدعوات الحية حتى يكتب لها النصر والبقاء، فما نصيب الشيوعية من «الذاتية» و«التقدمية» و«الشمول»؟

١ ـ وأول ما يلاحظ في الفلسفة الشيوعية إنكارها الجريء الصريح لعقيدة الألوهية والرسالات والعالم الآخر، فالله في نظر الشيوعية الماركسية خيال ابتدعه الإنسان يوم كان رازحاً تحت سلطان الخوف والوهم، والأنبياء ليسوا إلا عباقرة اتخذوا من فكرة «الله» وسيلة لإخضاع العوام والجماهير لاستبداد الإقطاعيين والمستغلين، والدين هو من صنع هؤلاء الذين سموا أنفسهم بالأنبياء، وليس وراء هذا العالم المادي شيء وكل ما تتحدث عنه الديانات عن عالم «الآخرة» والحساب والعقاب والجنة والنار وهم وخيال باطل له تأثير سيىء على الجماهير، ومن هنا كان الدين عند الشيوعيين «أفيون الشعوب»، واستمِعوا إلى ما يقوله «مكسيم جوركي» أكبر كُتَّاب الروس الشيوعيين في كتابه «أين الله»: أيها الشعب، أنت هو إلهي! أنت هو خالق الآلهة التي ابتدعتها بصلاح نفسك بين

ظلمة الاضطراب والفوضى وبصيص التنقيب والدرس، أيها الشعب لن يكون على الأرض إله سواك لأنك أنت الإله الأحد صانع العجائب، فمبارك أنت. هذا ما أؤمن وأعترف به.

٢ ـ والشيوعية في تفسيرها المادي للتاريخ تجعل تاريخ الإنسان على وجه الأرض معركة أمعاء وبطون وشهوات تخرب وتهدم لتمتلىء بالطعام والشراب، والنظرية المادية قديمة في تاريخ الفلسفة، ولكن الشيوعية هي التي أقامت عليها كل أحداث التاريخ، فالبطن والجسم أولاً ثم الفكر والفن والخلق والمعاني النفسية بعد ذلك. وعليه فإن تاريخ الأنبياء والعلماء والفلاسفة وما قام به المصلحون والشهداء والعظماء من تضحيات حولت مجرى التاريخ وسارت مثلاً في إنكار الذات واحتقار اللذة وإيثار الغير، ليس إلا أثراً من آثار البطن واللذة دفعت إليه عوامل الجوع والفقر والحرمان.. وليس يُعدّ في نظر العقل شيئاً أبعد عن الحق والواقع من هذا الزعم الباطل.

٣ ـ والشيوعية تثير حرب الطبقات على أساس من الحقد والانتقام. صحيح أن العمال والفلاحين مضطهدون مظلومون في المجتمعات الرأسمالية، ولكن ليس صحيحاً أن يكون إصلاح هذا الخلل ودفع ذلك الظلم بإشعال نار العداوة والبغضاء في قلوبهم نحو الآخرين.. إن الحقد قد يهدم أقوى بناء وأشده استمساكاً، ولكنه لا يستطيع أن يقيم بناء متماسكاً إلا على أساس من الرمل تهوي به الريح العاصفة في مكان

سحيق. ومن قاوم الظلم بالظلم والفساد بالفساد كان كمن يطفىء النار بالنار لن يزيدها إلا ضراماً وأواراً. والذين يسلكون إلى السلام والأمان والاستقرار في المجتمع سبيل الحرب بين طبقاته، أنما يضعون في أسس المجتمع المواد التي تنفجر كل آن لتهدمه فوق ساكنيه، ولسنا نعلم في الدنيا فلسفة تسلك إلى الحب سبيل البغض إلا الفلسفة الشيوعية في دعوتها إلى صراع الطبقات. بل إن الحب وجميع المعاني الإنسانية التي بها يتعاون الناس ويتعاطفون، لا مكان لها في الفلسفة الشيوعية ما دام الأمر أمر صراع وكفاح واسترداد الحق السليب بالقوة المادية والدكتاتورية العمالية، وقد لاحظ «أندريه جيد» في حديثه عن المجتمع الشيوعي أن من أبرز ما فيه «ضمور العاطفة الإنسانية» في قلوب أفراده.

٤ ـ والشيوعية لا تؤمن بالقيم الأخلاقية كما جاءت بها الشرائع والديانات، فما دام تاريخ الإنسان صراع أمعاء وبطون، وما دامت الميول الجنسية غريزة قاهرة لها سلطانها على الفكر والجسم، فإن الحياة الجنسية لا تحتاج إلى قيود شديدة كالتي تفرضها الديانات، إن الزواج بين الرجل والمرأة عقد شركة بينهما، فلكل واحد منهما أن ينفصل عن الآخر متى شاء، ويشترك مع آخر كما يشاء.. إن بيوت البغاء العلنية والسرية قد لا يكون لها وجود في المجتمعات الشيوعية؛ لأن الحياة الجنسية هناك تحت متناول كل رجل وامرأة كأمر طبيعي عادي لا يحتاج إلى استخفاء عن مراقبة القوانين والأنظمة، وقد

يكون المجتمع الرأسمالي ينظر إلى الحياة الجنسية بهذا المنظار ذاته، ولكنه أكثر نفاقاً واستحياء، وكلا المجتمعين في نظرنا بعيدان عن سنن الحق والكرامة والإنسانية.

أما القيم الأخلاقية الأخرى كالصدق والوفاء والعفة والحشمة والأمانة فهي في الفلسفة الشيوعية قيم موضعية ينظر إليها بمنظار «المصلحة المادية» فما الذي يدعو إنساناً جائعاً لأن يصبر على السرقة والعدوان ما دام محتاجاً إلى الطعام؟ وما معنى الوفاء بالعهود والمواثيق ما دامت لا تحقق مصلحة للأفراد أو الجماعات أو الحكومات؟.. وحين ينظر إلى القيم الأخلاقية بهذا المنظار، يراد للإنسان أن ينحط إلى مرتبة الحيوان، من حيث لا يجتمع فرد مع آخر إلا وبينهما حاجز من الحذر والحيطة والترقب، وأي شقاء يحيط بالإنسانية أبلغ من أن يعيش في هذه الأجواء؟ وأية قيمة للإنسان في عقله وعلمه وذكائه إذا كان يعيش بأخلاق «الثعلب» في ختله ومكره ودهائه؟ ومن هنا كان خطر هذه الفلسفة على السلوك الاجتماعي أنها لا تحاول رفع مستواه إلى حيث يطمئن الناس بعضهم إلى بعض، بل هي حين تتمكن من نفوس المؤمنين بها تعمل على هبوط المستوى الأخلاقي الاجتماعي العام إلى حيث يعيش الناس في قلق واضطراب دائمين.

٥ ـ ونحن كأمة لها فلسفة وتراث وقيم روحية وأخلاقية واجتماعية، نعتبر الشيوعية أجنبية الفكرة والمصدر والاتجاه والغايات، وحسبنا فيما قدمناه دليلاً على مجانبتها لما عندنا من

حقائق وشرائع وفلسفة وأنظمة قدمناها للإنسانية وقدنا بها ركبها نحو النور والخير والكرامة يوم كانت تعيش في أشد عصورها ظلاماً وشراً ومهانة. .

إن الشيوعية غريبة عنا في نظرتها إلى «الله» وإلى «الأنبياء» وإلى «الأديان» وإلى «الآخرة» وإلى «الجنة والنار» وإلى «الروح والأخلاق» وإلى «تاريخ الإنسانية» ومراحل تطور الحضارات. وهي بذلك تفقد «عنصر الذاتية» وهي أهم عنصر من عناصر «الواقعية» في الدعوات كما أسلفنا.

والشيوعية في نظرتها إلى العلائق الجنسية والقيم الأخلاقية تلك النظرة التي أسلفنا الحديث عنها تفقد عنصر «التقدمية» بمعناها الإنساني الكريم، إذ هي رجوع بالإنسان إلى العصور الأولى التي كان ينطلق فيها وراء شهوته ومصلحته من غير نظر إلى كرامة المجتمع أو استبقاء للفضائل الذاتية الأخلاقية فيه.

والشيوعية في قصر اهتمامها على الإصلاح الاقتصادي أو «المعاشي» دون اهتمام أو مبالاة بالإصلاح الأخلاقي والروحي - بل هي تعمل على نقيض هذا الإصلاح - تكون قد فقدت عنصر «الشمول» الذي ينبغي أن تتصف به الدعوات الواقعية لتعيش وتزدهر وتفلح في إصلاح المجتمع إصلاحاً كريماً متناسقاً. .

وبذلك نعلم أن هذه الدعوة لن يكتب لها البقاء والحياة

في بلادنا، إلا بمقدار ما تتغذى من سوء أوضاعنا الاقتصادية والسياسية، وبمقدار ما يكتب لمبادئها أن تحميها القوة والنظام الدكتاتوري القائم في مجتمعها الأول. إن الشيوعية ـ في نظرنا ـ قد تنتشر وتمتد وتأخذ سبيلها إلى قلوب الطبقات المظلومة أو الفئات المتحررة من سلطان الإيمان والأخلاق ولكنها لن تبني لنا كياناً مستقراً، ولن تقودنا إلى نهضة صالحة، ولن تؤسس لنا مجتمعاً كريماً. . وأخيراً فهي لن تعيش ولا بد من أن يصرعها الإسلام.

٤ ـ ما هي عناصر «الواقعية» في القومية العربية؟

لننتقل الآن إلى تحليل «القومية العربية» من حيث احتواؤها على عناصر الواقعية المطلوبة في كل دعوة، وهي «الذاتية» و«التقدمية» و«الشمول».

تعريف القومية العربية:

والواقع أننا حتى الآن لم نجد تعريفاً متفقاً عليه للقومية العربية عند دعاتها، ولعل سبب ذلك ناشىء من أهم من نادوا بها تأثراً بتيار القوميات الذي اجتاح أوروبا في القرنين الماضيين، والقوميات الغربية مختلفة في تحديد العناصر التي تتألف منها، فبينما تقوم القومية الألمانية على نظرية «العرق الآري الممتاز»، نرى ماتزيني الذي كان يلقب بنبي القومية في القرن التاسع عشر يسخر من هذه النظرية ويقول: لا نستطيع أن نجد في بقعة واحدة من بقاع أوروبا عنصراً خالصاً لم يمتزج بسلالات شعبية أخرى.

ففرنسا من الأمم الحديثة القوية، أهلها مزيج من الألمان والسلينيين والرومان، ولهذا الاضطراب في تحديد عناصر القومية عند الغربيين اضطربت أقوال القوميين العرب في تحديد عناصر قوميتهم، وكل منهم متأثر بالمصدر الذي استقى منه فكرة القومية، فرواد المدرسة الألمانية منهم أقرب إلى النزعة النازية والسلالة الممتازة من رواد المدرسة الفرنسية أو الإيطالية مثلاً، وقد حاول بعضهم أن يجعل اللغة هي العنصر الأساسي في القومية ولكنهم يصطدمون بواقع سويسرا التي تتكلم ثلاث لغات وهي شعب واحد، كما يصطدمون بواقع الأمم التي تتكلم اللغة الإنكليزية كإنكلترة وأمريكا وهما شعبان مختلفان. وحاول بعضهم أن يجعل التاريخ بدلاًمن اللغة كعنصر أساسي للقومية ولكن يرد عليهم أن التاريخ إنما تصنعه عوامل مشتركة من عقيدة ومصلحة أو لغة، وينادي آخرون برابطة الأرض ولكنهم يصطدمون بأن أرضنا العربية اليوم سكنتها شعوب مختلفة متباينة ونحن لا نشعر أبداً بما يشدنا إلى الفراعنة والفينيقيين أو الآشوريين الذين كانوا سكان هذه الأرض العربية الواسعة، والذين ينادون الآن بالفرعونية أو الفينيقية أو الآشورية في نظرنا ونظر القوميين العرب «قوميون إقليميون» من ألد أعداء الوطن العربي الكبير. ولا يصح أن تكون «المصلحة المشتركة وحدها» هي أساس القومية، فهذه المصلحة لا تحديد لها، ولكل بلد مصلحة تختلف عن مصلحة البلد الآخر، والمصالح المشتركة بين العرب جميعاً قد تكون هي أيضاً مصالح مشتركة بينهم وبين

غيرهم من الأمم، فنحن نرى الدول المشتركة في ميثاق الأطلسي تجمعها مصلحة واحدة وهي مقاومة الشيوعية، وبذلك اجتمعت تركيا وأمريكا على صعيد واحد في هذا الحلف.

نظرة القوميين إلى الدين:

وهكذا تختلف عناصر القومية العربية وخصائصها عند كثيرين من القوميين العرب، وجمهورهم على اعتبار اللغة والتاريخ المشترك والأرض عناصر رئيسية في القومية، ولكنهم متفقون جميعاً على اعتبار «الدين» عنصراً غريباً أو «غير أساسي» في القومية العربية، وهم في ذلك متأثرون بالنظريات الغربية في مفهوم القومية، إذ الغربيون مجمعون على إقصاء الدين عن قومياتهم.

قد يكون للغربيين عذرهم فيما صنعوا، فقومياتهم وليدة صراع عنيف بين رجال الدين وبين الفكر والنهضة ولقد تعنت رجال الدين عندهم حتى أظهروه للناس بمظهر العدو الشرس لكل نهضة صالحة وفكر حر وتقدم حضاري.

وكانت قبضة رجال الدين على الشعوب قبضة حديدية قاتلة لم تدع لها متنفساً تتنسم منه عبق الحرية والكرامة، فلما انتصر العلم عليهم كان قاسياً في عقوبتهم، وكانت الشعوب محقة في نفرتها من دينهم الذي تمثل على مسرح الحياة حروباً ومحاكم وخراباً وإحراقاً وسجناً وحرماناً واستغلالاً، فأداروا له ظهورهم وحالوا بينه وبين التدخل في شؤون نهضتهم

وحضارتهم، من هنا كان إقصاء الدين عن القوميات.. ومن هنا كان فصل الدين عن الدولة..

وسبب آخر أن الدين الذي اعتنقته شعوبهم لم يسيطر على ضمائرهم وأخلاقهم تمام السيطرة في عصر من العصور.

لقد كانوا برابرة وثنيين قبل أن يدينوا بالمسيحية، واستمرت بربريتهم وعقليتهم الوثنية على حالها ملفوفة بغطاء شفاف من المسيحية وطقوس كنيستها، وهذه آدابهم الاجتماعية تدل على أخلاقهم بالوثنية القديمة التي تتنافى مع أخلاق المسيح وآدابه وعفته وطهارته، وهذه حروبهم الدينية تدل على بربرية أصلية تجانب سماحة المسيح ورحمته وإنسانيته، وهذه سيرتهم الاستعمارية تدل على مادية بشعة تتنكر أشد التنكر لزهد المسيح ومثاليته وعظمته.

لقد ظلوا إذاً غرباء عن المسيحية في تعاليمها الإنسانية الصادقة، وظل المسيح غريباً عنهم في أخلاقه النبيلة وروحانيته المشرقة، فلما تفلتوا من قبضة رجال كنيسته، استيقظت فيهم طباعهم الموروثة فوجدوا في دين المسيح ديناً غريباً عنهم لا يتجاوب مع نفوسهم الظامئة إلى الدماء، وطباعهم المتسمة بالقسوة، وأيديهم الممتدة إلى المادة، وأجسامهم الغارقة في الترف. وإلا فكيف تنسجم فلسفة «نيتشه»، وآراء «بسمارك» وكفاح «هتلر» مع تعاليم الإنجيل الذي يقول: «من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الخد الأيسر»؟!.

وهل يعقل بعد هذا في قومية كالقومية الألمانية أن تجعل الدين عنصراً من عناصرها الرئيسية؟ . .

وهل يعقل في القومية الفرنسية التي قامت على حرية الفكر المطلق والعلم التجريبي أن تجعل الدين الذي يقول: «أطفىء مصباح عقلك واعتقد وأنت أعمى» عنصراً من عناصرها الرئيسية؟ . .

ومع هذا كله فلقد كان القرنان الماضيان كافيين لكسر حدة الغضب في نفوس الغربيين نحو الدين، ولتفكيرهم في الرجوع اليه . . لا بمعنى الرجوع إلى سلطة الكهنوت وجمودهم وتعصبهم . . بل بمعنى الرجوع إلى روحانية الدين ومبادئه التي تخفف من شقاء الإنسان وقلقه وعذابه . .

وحتى في ذلك الوقت الذي كانت فيه القوميات في أوج معاركها الدامية لتثبيت كيانها كان رجال عقلاء أمثال متزيني مؤسس القومية الإيطالية وواضع الحجر الأساسي في فلسفتها، ينادي بخطأ الابتعاد عن الدين رغم نفرته من سلطان الكنيسة ورجالها . . وكان يعلن «أن الدين عنصر الحياة الجوهري الأبدي، وروح الإنسانية وحياتها ووعيها، وهو الذي يلهم الإنسانية مبادىء الإخاء وخدمة المجتمع ويشرفها ويعزيها ويشد من عزمها ويقويها».

ويقول: «لا يوجد مجتمع صادق بدون يقين مشترك وغرض عام، والدين يقدم المبادىء والسياسة تطبقها، وحيث

لا يوجد هذا اليقين الديني، فإن مجرد إرادة الأكثرية معناها فقدان الاستقرار والعسف بالأقلية، وبدون الله تستطيعون أن ترغموا، ولكنكم لا تستطيعون أن تقنعوا، وتستطيعون أن تكونوا طغاة جبابرة، ولكنكم لا تستطيعون أن تكونوا مربِّين مرشدين أو رسلاً هادين».

لم يكن متزيني ـ حين قال هذا ـ رجل دين وكاهن كنيسة فقد كان يمقت البابوية، ويعتقد أنها خانت رسالتها وهي حماية الضعفاء ـ وحالفت الأمراء، واعتزلت الحركات الإنسانية، ولم يكن متعصباً للمسيحية، فقد كان يأخذ عليها نزعتها الفردية وإنكارها لطهارة الإنسان وعلاجها للعيوب الاجتماعية عن طريق الإحسان، وكان ينكر فيها ألوهية المسيح وفكرة الوسيط بين الله والإنسان وفكرة الخلاف بين الروح والمادة، أجل لم يكن حينها يُعْلِي من شأن الدين وأثره في القومية ـ متعصباً للمسيحية أو أحد أحبارها، ولكنه كان رجلاً يؤمن بالله وينكر على «المادية» نظرتها الفردية الفاترة فيقول: «المادية ليست معتقداً، إنها بغير يقين ولا تدرك شيئاً أسمى ولا تعترف برسالة، وتعيش في نفسها ومع نفسها، وتنظر إلى الحقائق وتهمل المبادىء وتظل نظرة فردية فاترة، ومثل هذه النظرية لا تخلق أمماً عظيمة؛ لأن الأقوام العظماء هم الذين يمثلون فكرة في الإنسانية وينمون هذه الفكرة، والمادية لا تأتي بفكرة عامة، وإنما تنفيها وتستبعدها وتجعل المصلحة الذاتية قانوناً لكل شيء».

لم ينتبه دعاة القومية العربية عندنا إلى ظروف الغربيين التي أدت إلى نفرتهم من الدين وإقصائه عن قومياتهم وإلى أن هذه الظروف تختلف تماماً عن ظروف الدين في بلادنا وعن طبيعته ورسالته وخصائصه، ولعل كثيراً منهم لم يستوعب آراء رجال أمثال متزيني أو لم تعجبهم مدرستهم القومية.. فوقفوا من الدين هذا الموقف الذي بدأ في إجماعهم تقريباً على أن لا يكون عنصراً أساسياً من عناصر القومية العربية.. ثم هم بعد ذلك فريقان:

١ ـ فريق يحارب الدين ويتبنى مهاجمة فلسفته ونظامه ويتهمه بالجمود ويقلد أحرار أوروبا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر في حديثهم عن الدين تقليداً سمجاً بارداً يتميز بالغباوة والغفلة.

٢ ـ وفريق لا يتبنى محاربة الدين وقد يحسن النظرية ولكنه لا يعتبره دعامة من دعائم القومية بل يراه حائلاً دون اجتماع شمل الأمة على هدف واحد وغاية واحدة.

فأما الذين يحاربون الدين ـ وخاصة الإسلام ـ وينعتونه بالجمود والرجعية فلن ندخل الآن في نقاش طويل معهم، وحسبنا أن ننظر إلى الحديث عن الدعوة الإسلامية وخصائصها لنرى فيه كيف ينكشف الستار عن جهلهم الفاضح بالإسلام أو تعصبهم المعيب عليه.

وأما الذين لا يحاربون الدين ويحسنون الظن بصلاحه

وحاجة المجتمع إليه، ولكنهم يرون اعتباره من عناصر القومية خطراً على وحدة الأمة التي تتألف من أديان متعددة فهؤلاء نريد أن نقف معهم قليلاً.

٥ ـ ما هي عناصر «الواقعية» في القومية العربية؟

يقول فريق من القوميين العرب الذين لا يحاربون الإسلام، إنه لا يصح جعل الدين عنصراً من عناصر القومية العربية؛ لأن الأديان في الأمة العربية متعددة ولا مجال لاعتبارها كلها من عناصر القومية، والاعتماد على واحد منها يؤدي إلى التفرقة بين أبناء الأمة الواحدة، وهذا يتنافى مع رسالة القومية..

والحق أن هذا المنطق الخاطىء قد سلك سبيله إلى كثير من العقول والقلوب، وأن كثيرين من القوميين الذين يحترمون الدين ويتمسكون بشعائره يخشون من الحركات الدينية، وقد يرون من الخير مقاومتها خوفاً من إثارتها حرباً طائفية بين أبناء الأمة الواحدة، وهذا من أعجب المفارقات التي وقع فيها هؤلاء القوميون المتدينون..

إن القومية تعبير صادق عن خصائص الأمة وآمالها ورسالتها في الحياة، وكل قومية تبتعد عن هذا السبيل تكون قومية مكذوبة محكوماً عليها بالإخفاق والموت، وأمتنا عرفت بخصائص في التاريخ القديم والحديث، من أهمها تدينها وإيمانها بالروح وحبها للمثل العليا الأخلاقية والروحية،

وتضحيتها في سبيلها بالمادة من جسم ومال ومتعة، وهذه النزعة تتجلى في جاهليتنا قبل الإسلام بكثرة الأصنام التي كان يعبدها العرب، حتى كان لكل قبيلة إله، ولكل بيت إله، وكثيراً ما كان الرجل منهم يستصحب معه إلهه في السفر، أو يتخذ من التمر إلهاً يعبده حتى إذا جاع أكله.. إنه لدليل واضح على عمق النزعة الدينية في نفس العربي.. فلما جاء الإسلام تجلت هذه النزعة في العرب المسلمين على أشد ما تكون قوة وصفاء وأثراً خلف وراءه روائع البطولات في التضحية والفداء.. فإهمال الدين وعدم اعتباره من عناصر القومية العربية الأصلية، تعبير غير صادق عن حقيقة النفس العربية ونزعتها الفطرية، هذا من حيث عاطفة التدين إجمالاً في الأمة العربية.

أما موقف العرب من الإسلام وصلتهم به فهي الصلة التي لا انفكاك لها مدى أربعة عشر قرناً.. لقد دفع الإسلام العرب من جزيرتهم إلى الاختلاط بالعالم وتأثيرهم فيه وتأثرهم به، واستطاع الإسلام أن يجعل منهم في أول عهده أمة تختلف في كثير من مظاهر حياتها وتفكيرها وأهدافها عن حالتهم قبل الإسلام.. كان العرب وثنيين فخرجوا إلى الدنيا من أشد الأمم تحمساً واقتناعاً بالوحدانية الصافية الصادقة.. وكانوا فرديين متفرقين في مجتمعاتهم، فبدوا في رسالتهم الإنسانية التي حملوها للعالم مع فتوحاتهم من أشد الشعوب تكتلاً ووحدة وشعوراً بروح الجماعة وخضوعاً لها، وكانوا منعزلين عن العالم معتزين بحريتهم المنعزلة عن تيارات الفكر الإنساني

وموجات الحضارة الإنسانية، فإذا هم بعد الإسلام أمة تتصدر قيادة العالم إلى الخير، وتبني أنبل حضارة عرفها التاريخ. . لقد صنعهم الإسلام صنعاً جديداً، وبدَّل مقاييسهم، وحوَّل مجرى حياتهم، وأقام لهم أهدافاً تختلف تمام الاختلاف عن أهدافهم في جاهليتهم، وصاغ أخلاقهم وآدابهم صياغة جديدة عاشوا في ظلها أربعة عشر قرناً، فكيف ينتزعون بعد ذلك من أحضان الإسلام؟ وكيف يقال لهم عيشوا في ظل قوميتكم الجديدة بعيدين عن الدين الذي صحبتموه أربعة عشر قرناً؟ وكيف يتصور القوميون أن يعيش العرب بعيدين عن الإسلام ومثله العليا ونظامه وفلسفته، بعد أن توالد منهم خمسة وثلاثون جيلاً لا يعرفون غيره ديناً ولا نظاماً؟

إني لا أستطيع أن أتصور بعداً عن الحق وإغراقاً في الوهم ومكابرة للواقع مثل مكابرة هؤلاء القوميين حين يريدون إقصاء الدين من حياة العرب في عصرهم الحديث.

ومن الغريب أن مؤتمر الخريجين الذي انعقد في القدس العربية مطلع الستينات ـ وكلهم من المؤمنين بالقومية العربية ـ قد أقر فيما أقره المبادىء العامة للثقافة العربية، وقد جاء من ضمن هذه المبادىء ما يلي:

«هذه الثقافة تعتبر المعتقدات الدينية والمثل الروحية والخلقية جزءاً لا يتجزأ من كيانها، وتؤمن بأن هذه النواحي الروحية والخلقية كفيلة بأن تمد النهضة العربية بكثير من الحوافز في الحياة القومية والإنسانية».

هذا ما أقره المؤتمر بالإجماع وهو عدا عن أنه نصر كبير للدعوة الإسلامية التي ما برحت تنادي منذ نصف قرن بما أنكره عليها القوميون أولاً ثم آمنوا به أخيراً.. فقد ضيق شقة الخلاف بين هؤلاء وبين دعاة الإسلام، وجعل الحجة في أيدينا أقوى وأملك.. ففيم إذاً مجافاة الدين عامة ـ والإسلام بشكل خاص ـ وأقصاؤه عن الفلسفة القومية؟ لماذا لا يعتبر من عناصرها الرئيسية ما دام جزءاً لا يتجزأ من كيانها وهو يمد نهضتها بكثير من الحوافز في الحياة القومية والإنسانية؟

الدين والوحدة القومية:

لم يبق بأيديهم إلا حجة واحدة.. وهي أن الأديان في العرب متعددة، فهل نأخذها كلها ونقيم فلسفة القومية العربية على أساس فلسفتها المتباينة المختلفة؟ هذا ما لا يكون! وهل نأخذ بواحد منها وندع الأخرى..

إن هذه هي التفرقة التي تحاربها القومية؟ وبأيّها نأخذ أبالإسلام؟ إذن يغضب المسيحيون واليهود! أم بالمسيحية؟ وفي ذلك سخط اليهود والمسلمين! أم باليهودية؟ وهذا ما لا يرضاه المسلمون والمسيحيون جميعاً، فلنستفد من المثل الروحية والخلقية العليا لكل دين في تهذيب المؤمنين به.. ولنجعل القومية بعيدة عن صراع هذه الديانات وكفاحها العنيف الذي ترك آثاراً مؤلمة في تاريخنا القديم...

ونحن نريد أن نتعرف على أصول هذه الديانات وأهدافها

ونظرياتها قبل أن نجيب عن هذه الشبهة، وأحب أن نقصي اليهودية هنا عن ميدان هذا البحث، فلا نحن ولا القوميون العرب مستعدون لمراعاة شعور اليهود وعواطفهم بعد قيام الصهيونية العالمية بانتزاع فلسطين من أيدينا ومسايرة يهود العرب قاطبة للسياسة الصهيونية وإمدادها بالمال والرجال والسلاح والعَون المادي والمعنوي، فلم يبق عندنا في حساب القومية العربية إلا ديانتان: الإسلام والمسيحية، فهل هما متباينتان بحيث يستحيل أن يعيشا معاً أو أن تعتمد القومية العربية على مبادئهما؟..

من حسن الحظ أنه لا يوجد في وطننا العربي دينان لا يلتقيان في فلسفة الحياة وعقيدة الألوهية والجزاء والرسل كما هو الواقع في القارة الهندية مثلاً، إن المجوسية في الهند وثنية تعبد النار وتؤله الحيوان وتقدس روث البقر.. بينما الإسلام دين توحيد لا يعبد إلا الله، ولا يرى في الحيوان إلا أداة لنفع الناس، وليس البقر إلا لحماً يؤكل، وروثاً نجساً يحترز منه.. كيف يمكن أن تلتقي هاتان الديانتان على صعيد واحد؟ وكيف يمكن أن تقوم القومية الهندية على فلسفتهما معاً؟ هذا مستحيل إلا أن تحكم إحداهما الأخرى.. ولذلك آثر المسلمون وهم مائة مليون أن تكون لهم دولة تعيش في ظل الإسلام ومثله وفلسفته. فهل الحال كذلك بين الإسلام والمسيحية؟

إن الإسلام والمسيحية يعلنان الإيمان بالله ووحدانيته، والمسيحيون وإن فهموا الوحدانية على شكل يراه الإسلام تثليثاً

فهم لا يمتنعون من أن يقولوا مع المسلمين: لا إله إلا الله وهو شعار الإسلام. والديانتان تؤمن بالملائكة والرسل والكتب السماوية واليوم الآخر. وهذه هي أركان الإيمان في الإسلام وهي كذلك في النصرانية، وكذلك يلتقيان في أصول الأخلاق العامة والدعوة إلى مكارمها، ففي الديانتين دعوة إلى الصدق والوفاء والأمانة والبر والتعاون والتسامح والعفة والحشمة. وفي الديانتين دعوة إلى هجر السُّكْر والزنى والقمار والسرقة والغصب. قد يشرب المسيحي الخمر لكن ذلك ليس من تعاليم دينه، فهو يؤمن بقول التوراة: «السكِّيرون والزنَّاؤون لا يدخلون ملكوت الرب»، وكذلك قد يشرب المسلم الخمر وهي محرمة عليه في الإسلام ويلتقيان في النفرة من الخبائث والنجاسات.

فالمسلم والمسيحي لا يأكلان الميتة ولا يقربان روث البقر، ولا يتبركان بزيارة القردة للبيوت وأكل الجرذان من الطعام!.. وكلاهما يأكل لحم البقر ويشرب لبنه ويستخدمه في الحرث والزرع، ويلتقيان أيضاً في الأصول العامة للزواج والنسب فكلاهما يحرم الزواج من الأصول والفروع. وكلاهما يرى القوامة في البيت للرجل والتربية للأم. نعم قد يطلق المسلم ويتزوج أكثر من واحدة. والمسيحي لا يرى الطلاق إلا في حالات نادرة ولا يرى تعدد الزوجات، وهذا ليس بشيء. ففي أوروبا المسيحية رجال يطلقون ورجال لا يرون الطلاق وفيها جمهور ينكر تعدد الزوجات، وفلاسفة وجمعيات نسائية تدعو إلى هذا التعدد.

بقي شيء واحد.. وهو أن في الإسلام تشريعاً مدنياً وجنائياً واقتصادياً ودولياً وليس في المسيحية شيء من ذلك.. وهذا لا يشكل نقطة خلاف بين الديانتين، فالزيادة في الفضل والتنظيم والتشريع ليست مدعاة للخصام والحقد والحسد بل مدعاة للوئام والحب.. والمسيحيون في بلادنا لا يأبون أن يأخذوا عن الفرنسيين أو الإنجليز أو الألمان تشريعهم وهو ليس مسيحياً، فلماذا يأبون أن يأخذوا عنا تشريعنا وهو عالمي عربي ينسجم مع طباعهم وبيئتهم التي عاشوا فيها أربعة عشر قرناً على أقل تقدير؟!

ونُجمل ما فصَّلناه بكلمة واحدة.. أنه ليس في الوطن العربي دينان لا يلتقيان.. بل فيه دينان متعاونان مشتركان في أصولهما وفلسفتهما العامة.. ونضيف إلى ذلك أن الإسلام يؤمن بالمسيحية كدين بعث الله به رسوله عيسى عليه السلام، ويؤمن بالمسيح كنبي كريم جاء لهداية الناس في عصر من العصور، وهو يطلب من المسلم أن يؤمن بالمسيحية والمسيح على هذا الأساس.. وينطوي على تعاليم المسيحية التي أنزلها الله ويزيد عليها تشريعاً جديداً مفصلاً لكل شؤون الحياة.. وبذلك يصح لنا القول أنه ليس في الوطن العربي إلا دين واحد ينقسم إلى دينين: هو الإسلام الذي يقدس عيسى ويحترم النصرانية التي جاء بها..

ومن حسن الحظ أيضاً أن سبعة وتسعين بالمئة من أبناء الأمة العربية يؤمنون بالإسلام الذي يقف من المسيحية هذا

الموقف المتعاون الكريم.. وهم بذلك لا يستطيعون أن ينظروا إلى المسيحيين إلا نظرة التعاون والوئام والسلام والاحترام لعقائدهم.. ولو كان الأمر على عكس هذا.. لو كان السواد الأعظم من العرب لا يؤمنون بالإسلام ولا بنبيه ولا بكتابه - كما هو موقف النصارى من الإسلام - لكان الخطر بالغاً على الأقلية المسلمة من أكثرية لا ترى في محمد هادياً رسولاً، ولا في القرآن كتاباً منزلاً، ولا في الإسلام شريعة مقدسة..

وقصارى القول أن الدين عنصر أساسي في حياة العرب وتفكيرهم وسلوكهم الشخصي الاجتماعي، وإن الإسلام والنصرانية يدعوان إلى الحب ويناديان بالسلام، وإن الإسلام - وهو دين السواد الأعظم من العرب - لن يكون عامل تفرقة بين المواطنين العرب حين تتبنى القومية العربية فلسفته في العقيدة - وهي قريب من فلسفة المسيحية - وفلسفته في الحياة ونظامه في المجتمع - وهذا مما تفرد به الإسلام وليس في المسيحية ما يقابله، فإذا أصرت القومية العربية بعد ذلك على أن تقصي الدين عامة والإسلام خاصة عن العناصر الأساسية فيها - في الوقت الذي لا تستطيع فيه أن تخرج العرب عن ديانتهم - فقد فصلت للعرب ثوباً لن يلبسوه، وحكت عنهم قولاً لم يقولوه.. وبذلك تفقد القومية العربية أبرز عنصر من عناصر الواقعية في الدعوات وهي «الذاتية»..

٦ ـ ما هي عناصر «الواقعية» في القومية العربية؟

الأهداف السياسية والاجتماعية:

ننتقل بعد ذلك إلى أهداف القومية «السياسية والاجتماعية» وهي تتلخص فيما يلي:

١ ـ تحرير الوطن العربي من الاستعمار.

٢ ـ وحدة الوطن العربي وجمع شتاته.

٣ ـ النهوض بالوطن العربي حتى يلحق بركب الحضارة.

وهذه الأهداف الثلاثة هي دلالة «الواقعية» في القومية العربية، فالوطن العربي وطن واحد، والوطن العربي يتوق إلى التحرر والاستقلال والنهوض من كبوته بعد طول عثاره، ونحن مع القومية العربية في هذه الأهداف لا نخالفها في واحدة منها.

فنحن من أشد المؤمنين بوحدة الوطن العربي، ومن أشد المنكرين للنزعات الإقليمية الضيقة فيه كالفرعونية والسورية والآشورية وغيرها. ونحن من أوائل المكافحين للاستعمار في مختلف صوره وأشكاله، وإذا كان القوميون يرون مكافحة الاستعمار واجباً قومياً فإنا نراه واجباً دينياً يكافىء الله من استشهد في سبيله بجنة عرضها السمٰوات والأرض، وإذا كان القوميون يرون مكافحة الاستعمار سياسياً وعسكرياً واقتصادياً، فنحن نزيد على هذا مكافحته ثقافياً وخلقياً وتربوياً..

وأما النهوض بالوطن العربي فذلك ما لا يختلف فيه اثنان ممن يعيش على ظهر هذا الوطن، ومن منا ينكر ما يجتاح الشعب من أمراض وجهل وفقر وظلم وفوضى وعلل اجتماعية لا بد من القضاء عليها حتى نكون أمة تستحق العيش مع أمم الحياة الكريمة الراقية؟..

أهدافنا أوسع مدى:

وإذا كنا نتفق مع القومية العربية في هذه الأهداف، فنحن نختلف مع دعاتها في الوقوف عند حدود الوطن العربي، بل نعمل لنهضة العالم الإسلامي واستقلاله وتحرره ووحدته، وذلك بلا ريب من عوامل القوة للقومية العربية، فالبلاد العربية تجاور عالماً فسيحاً له ثروته وقوته ووزنه في الميدان الدولي، وهو يرتبط مع العالم العربي بروابط وشيجة من الدين واللغة والتراث والتاريخ المشترك.. فمن الغفلة والتقصير في حق الوطن العربي أن لا يعنى القوميون بهذا العالم الفسيح الذي يحيط به، والذي تتقاتل على خيراته وبسط النفوذ الفكري واللغوي عليه أكبر دول الأرض، بينما يستطيع العرب أن يستفيدوا من خيراته وقوته، وجعل الله لهم - بالإسلام - نفوذاً خالداً لا تعدو عليه عوادي الزمن، فإذا وقف القوميون العرب عند حدود الوطن العربي لا يهتمون بما وراءه، قمنا نشد الروابط ونزيد في الأخوة والصلات الحسنة بينه وبين العالم الإسلامي كله، وهذا جهد إن لم يقم به القوميون، فلا أقل من أن يقابلوه بالتأييد والارتياح.

الوسائل لتحقيق الأهداف:

يعتمد القوميون العرب على نشر العلم والثقافة لتحقيق تلك الأهداف، كما يعتمدون على إلهاب العاطفة الوطنية والشعور القومي واستثارة التاريخ المشرق لحضارتنا.. وهذا مما نؤيدهم فيه ولا نخالفهم في شيء منه، ونحن نعتقد معهم أن العلم هو من الوسائل الفعالة لتحقيق الاستقلال والوحدة والتطور إلى ما هو أكمل وأفضل.

ولكنا نختلف معهم في إهمالهم وسيلتين من أقوى وسائل النهوض والكفاح وهما: الدين والإخلاص.

ونحن قد بحثنا ـ في مقالنا السابق ـ مع القوميين العرب في الدين كعنصر أساسي من عناصر القومية، ونبحثه معهم الآن كوسيلة من أقوى الوسائل لتهذيب الجماهير وإيقاظها وبث روح التضحية والفداء والإخلاص في كفاحها..

إن القوميين لموقفهم البارد من الدين ومن إهمالهم له كعنصر من عناصر القومية، يقفون منه نفس الموقف حين يبحثون عن وسائل الإصلاح. وليس ينكر أثر الدين في تحويل الجماهير من خوف إلى شجاعة، ومن تفرق إلى وحدة، ومن سكون إلى حركة، إلا كل جاهل بالتاريخ وعلم النفس الاجتماعي ووقائع الحياة التي نعيشها بين أمتنا، وما رأينا أمة من أمم العالم الحاضر لم تلجأ إلى الدين إبان الأزمات، ففرنسا وإنكلترا وألمانيا وأمريكا لجأت إلى الله في أوائل

الحرب العالمية الثانية، واستثارت في شعوبها روح الإيمان والتدين.. حتى روسيا التي تقوم فلسفتها الشيوعية على إنكار الأديان ومحاربتها لم تر بداً من أن تلجأ إلى الدين لتثير الحماس في نفوس شعبها أثناء الغزو الألماني، فسمحت بافتتاح الكنائس والمساجد وأقامت بطريركاً للنصارى وشيخ إسلام للمسلمين، ومهما تكن البواعث التي حدت بروسيا إلى هذه المسايرة الجديدة للدين فإنها بلا شك دليل على شعور قادة السوفييت الملحدين بقوة تأثير الدين في نفوس الشعب الروسي وحمله على مقاومة الغزاة والمعتدين.. وما لنا نذهب بعيداً وهذه حركات التحرر والثورات في تاريخ العرب الحديث يشهد بأن الدين كان المحرك الأول لها في سوريا وفلسطين والأردن والعراق ومصر والسودان والجزائر ومراكش وتونس وغيرها، إذ كان أكثر قادتها وكل جماهيرها من الفئات التي يسيطر الدين عليها سيطرة بالغة الأثر. وما دمنا في معارك متصلة مع الاستعمار والصهيونية وما دامت دولنا حتى الآن تعتبر نفسها في حالة حرب مع إسرائيل أفلا يكون من أكبر الأخطاء التي وقع فيها زعماء العرب ودعاة القومية العربية فيهم إهمال الاستعانة بالدين في إنجاح حركات النضال التي ما تزال تتعثر وتكبو ولما تؤت ثمراتها بعد..

ومن المؤلم أن يعرف القوميون العرب قاطبة سواء من كان منهم يؤمن بالدين ومن لا يؤمن به، بأن حضارتنا التي حولت مجرى التاريخ كانت مدينة للإسلام في حركته ومبادئه

وثورته، وأن رجال الرعيل الأول من صحابة الرسول والتابعين من بعدهم إنما خلدوا في التاريخ ما لم يخلد به عظماء أمة من الأمم، بتعاليم هذا الإسلام وروحه العظيمة في التربية والتوجيه.

ومع ذلك فهم اليوم لا يريدون أن يعتمدوا على الإسلام في خلق جيل جديد يعيد إلى الدنيا مآثر أجيالنا التي تتضوع سيرتها في التاريخ نبلاً وشهامة واستقامة وعلماً. يقول المؤرخ الشهير المعاصر «ويلز»:

وكما أخطأ القوميون العرب في إهمالهم الاستقامة بالدين في حركاتهم الإصلاحية، وفي الوصول إلى أهداف القومية العربية، أخطأوا في إهمالهم عنصر «الأخلاق» في برنامجهم الإصلاحي، فهم لم يجعلوا إصلاح الأخلاق الاجتماعية جزءاً من برنامجهم، ولا يحبذون دعوات الإصلاح الأخلاقية التي تريد أن تطهر المجتمع من الانحلال الخلقي المريع الذي وصلت إليه.. إنهم قد يؤيدون الدعوة لإصلاح الأخلاق نظرياً، ولكنهم لم يضعوا ذلك بصراحة في برامجهم، وأكثرهم يعيشون في جو موبوء وانحراف خلقي لا ينكره أحد. ولا يستطيعون أن ينكروا أثر الأخلاق في النهضات، ولا أن ينكروا أن من أكبر أسباب انهيار الإمبراطوريات والحضارات انحلال أخلاق أبنائها، وإن نهضات الأمم لا تقوم إلا على الأخلاق المكافحة النظيفة المستقيمة.. إنهم لا ينكرون شيئاً من هذا ولكنهم يجانبون الدعوة إليه وحمل لوائه ويهاجمون من يدعو

إلى إصلاح الأخلاق بالجمود والرجعية.. ولو أنك حضرت مجتمعاً يضم هؤلاء القوميين في إحدى رحلاتهم أو أمسياتهم، لعجبت كيف يهزؤون من رجل يجلس معهم ثم لا يشرب الخمور؟ ولرأيتهم يزدرون عقليته ويتهمونه في تقدميته ونحن نتكلم في هذا عن تجربة ومعرفة ووقائع ملموسة نسمعها كل يوم. ولو سألتهم جميعاً: هل شرب المسكرات يفسد الصحة أم يزيد فيها؟ وهل هو يصلح الأخلاق أم يفسدها؟ لما ترددوا في الجواب بأن المسكرات تفسد وتضر، ولكنهم يقولون: «هذه قضية شخصية لا علاقة لها بالقضايا العامة»..

إن الذي نختلف عنهم فيه هو أنهم يعرفون الشر ويفعلونه، ونحن نعرف الشر ولا نفعله، وأنهم يؤمنون بالطريق المستقيم لنهضات الأمم ولا يسلكونها، ونحن نؤمن بها ونسلكها ونحمل أنفسنا عليها. وأنهم يحصرون النهضة بالمادة وإصلاح الأوضاع الاقتصادية والسياسية فحسب، ونحن نجعلها أثمن من ذلك وأعم.. نحن نعتبر النهضة إصلاحاً لكل أوضاع الأمة السيئة، وفي مقدمة ذلك إصلاح أخلاقها ورفع أرواحها ومعنوياتها. وهي أمة أوتيت من وسائل الحياة المادية أرقاها وأغناها ولكنها فقيرة في الروح والأخلاق. إنها عندنا أمة عرجاء تمشي على قدم واحدة.

ولسنا وحدنا الذين نقول هذا.. بل كل عاقل عالم يؤمن بوجوب استعلاء الخير على الشر في هذه الحياة يقول بمثل ما نقول.. وهذا هو الدكتور «جورج مسارطون» الأستاذ في جامعة

هارفرد ورئيس الاتحاد الدولي لتاريخ العالم يقول: «أنا لا أزال أؤمن بالتقدم كما آمن «سينكا» لا كما يفعل أنصاف المتعلمين الذين يقيسون الرقي بالشاقول (أي قياساً مادياً لا روحياً) أو بمقدار ما فيه من الرفاهية، ولكن التقدم المادي الخالص مدمر، وهو ليس تقدماً على الإطلاق بل تأخر أساسي. ـ إن التقدم الصحيح ـ ومعناه تحسين صحيح لأحوال الحياة ـ لا يمكن أن يبنى على وثنية الآلات، ولكن يجب أن يقوم على الدين وعلى الفن، وفوق ذلك كله على العلم. العلم الخالص، وعلى محبة الله، على محبة الحقيقة وعلى حب الجمال وحب العدل.. إن المشكلة الأساسية في عالمنا اليوم (وفي كل يوم) هي مشكلة رفع المستوى الروحي لمجموع الناس، فإذا نحن خبنا في رفع المستوى الذي يحيا عليه هؤلاء الناس فإن جميع حسنات مدنيتنا تصبح حينئذ نقمة عليهم ثم تنحدر بهم وتهلكهم».

وصفوة القول أن القومية العربية كما يصورها لنا دعاتها على اختلافهم في تحديد مفاهيم القومية ينقصها عنصر «الذاتية» حين أنكرت أن يكون الدين عنصراً أساسياً من عناصرها الرئيسية، وتفقد عنصر «الشمول» حين تتخلى عن حمل لواء الإصلاح الأخلاقي للأمة العربية، وتفقد عنصر «التقدمية» بمعناها الصحيح حين تسمح لشبابها ولجماهير الأمة أن ترتد إلى حال الإنسانية في عصورها الأولى من الشهوانية والإباحية والنفعية.. وبذلك لا تكون القومية العربية كما يصورها لنا

القوميون العرب دعوة «واقعية» يكتب بها النجاح في وصول أمتنا إلى ما تبتغيه من حرية ووحدة وتقدم نحو الخير والحق والكمال..

٧ ـ ما هي مبادىء الدعوة الإسلامية وأهدافها؟

قدَّمنا القول فيما مضى عن الدعوات القائمة في بلادنا، وأوجزنا الحديث عما تحويه كل دعوة من عناصر الواقعية وما تفقده منها، ولم يكن ذلك إلا تمهيداً للكلام عن الدعوة الإسلامية الحديثة وواقعيتها، ولا بد لنا من الإشارة في مطلع هذا الحديث إلى أننا لا نريد هنا أن نفيض في مبادىء الدعوة الإسلامية وبرنامجها وأهدافها وفلسفتها، فذلك له مجال آخر. وإنما نريد التدليل على واقعيتها واشتمالها على كل عناصر الواقعية المطلوبة في الدعوات التي يكتب لها الحياة، وهي كما قلنا من قبل: «الذاتية» و«التقدمية» و«الشمول»، ومن ثَمَّ فسنوجز القول الآن في مبادىء الدعوة الإسلامية وأهدافها لننظر ما فيها من واقعية كما ندعي أو خيالية كما يزعم خصومها.

إن الدعوة الإسلامية تقوم على مراعاة الحقائق التالية:

أولاً ـ إن مجتمعنا يعاني فساداً داخلياً يعم كل ناحية فيه.

ثانياً ـ إن مجتمعنا بحاجة إلى حركة إصلاحية تعالج أوضاعه السيئة معالجة شاملة.

ثالثاً ـ إن مجتمعنا انبثق عن الإسلام وما زال يعيش في

أجوائه أربعة عشر قرناً، وقد طبعه الإسلام بطابع خاص يختلف كثيراً عن طابع المجتمعات العالمية الأخرى.

رابعاً ـ إن الإسلام دين الحياة الكريمة، وهو يجعل من المتبعين له العاملين بروحه، أقوى أمة وأعزها وأسعدها وأجدرها بقيادة العالم.

خامساً ـ إن الانحطاط الذي أصاب العالم الإسلامي ليس إلا نتيجة الابتعاد عن الإسلام والانحراف عن مبادئه والضلال في فهم روحه وفلسفته.

سادساً ـ إن الإسلام دين مرن صالح لكل زمان ولكل أمة، ومرونته هي التي تجعل تطبيقه في عصرنا الحاضر قد يختلف عن تطبيقه في بعض العصور الماضية لا من حيث المبادىء والأسس الصريحة العامة، بل من حيث الفروع والاجتهادات والأوضاع التي تحتم سنة الله في تطور الحياة أن تختلف بين عصر وعصر، ومن أجل ذلك فلا مانع من أن نفهم نصوص القرآن أو السنة التي تقبل الاجتهاد والتفسير المتعدد فهماً يختلف عن فهم آبائنا في العصور الماضية، إذا كانت روح الإسلام ومبادئه العامة تبيح هذا الفهم الجديد.

سابعاً ـ إن الإسلام يضع الأسس الصالحة في كل عصر لبناء مجتمع كريم، ولا يمنع أن نأخذ عن غيرنا من الأمم ما وصلت إليه تجاربها وأبحاثها في العلوم والصناعة والتنظيم والإدارة، عملاً بقوله عليه السلام: «**الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أنى وجدها**».

ثامناً ـ إن الإسلام أوسع من أن يفهم بالإطار الضيق الذي يفهمه الغربيون وغير المسلمين من معنى «الدين»، فهو نظام كامل شامل للحياة الإنسانية يوجهها نحو الخير والحق والسعادة؛ أي: هو فلسفة تامة متكاملة لشؤون الحياة كلها من عقيدة ونظام وآداب تضبط السلوك الاجتماعي وتوجهه في اتجاه واحد نحو التعاون العالمي مع الشعوب المحبة للخير والسلام.

تاسعاً ـ إن الإسلام رسالة عالمية للإنسانية كلها يعلو على النزعات القبلية والقومية والعنصرية والطائفية والإقليمية، فهو يريد إنشاء عالم واحد تحكم قومياته المختلفة وأجناسه المتباينة، فلسفة واحدة ومبادىء عامة واحدة، يترك في داخلها لكل أمة أن تعيش في جو خصائصها بما ينسجم مع مبادىء هذه الفلسفة وأحكامها العامة، ويحرص الإسلام على تضييق شقة الخلاف بين الأمم، والتقريب بين القوميات المتباينة بما يجعلها تتعارف على خير الإنسان وسعادة العالم. والإسلام بهذا المعنى يحارب القوميات التي تخالف فلسفته ورسالته واتجاهه الإنساني العالمي، ويؤيد القوميات التي تحمل رسالته إلى الدنيا مستفيداً من خصائصها لخير الإنسانية ونشر الحب والتعارف بين الشعوب قاطبة.

عاشراً ـ إن الإسلام يذهب إلى أن الإيمان برسالته هي أقوى صلة تربط بين أفراد الناس مهما اختلفت مواطنهم وعناصرهم، إنه لا ينكر رابطة الدم والقربى والجوار واللغة، ولكنه يجعل رابطة العقيدة أقوى من هذه جميعاً، فإذا اجتمعت

رابطته مع تلك الروابط المادية الأخرى أيدها وتعاون معها على الخير والبناء، وإن هي حاربته وحاولت القضاء عليه أنكرها وحاربها وجعل الرابطة بين أبنائه أقوى منها جميعاً.

هذه هي الحقائق العشر التي تقوم الدعوة الإسلامية الحديثة على اعتبارها، وهي حقائق يعمل دعاة الإسلام على ضوئها لا يشكون في واحدة منها، ولا تغيب عن أذهانهم في كل خطوة من خطوات دعوتهم. وفهم هذه الحقائق هو الطريق المفضل لفهم الدعوة الإسلامية وبيان اتجاهاتها، والتدليل على هذه الحقائق ليس مما يعنيه حديثنا اليوم، وما زال دعاة الإسلام يشرحونها ويبينونها ويبرهنون عليها في أحاديثهم ومحاضراتهم ومؤلفاتهم.

أما أهداف الدعوة الإسلامية الحديثة فنوجز القول عنها بما يلي:

هذا المجتمع وحدة متماسكة، والفرد هو الخلية الأولى فيه، والأسرة هي اللبنة الأولى في بنيانه، والمدرسة هي الوسيلة الأولى لتربية عقله، والمسجد هو المكان الأفضل لتربية روحه وخلقه، فالإصلاح يجب أن يبدأ من الفرد بإصلاح أسرته في البيت، ثم بتكوين عقله في المدرسة، ثم بتهذيب روحه وخلقه في المسجد، وعلى هذا تعتبر الدعوة الإسلامية أن كل مظهر من مظاهر الإصلاح في المجتمع، إن لم يبدأ من البيت والمدرسة والمسجد فهو إصلاح ناقص فاشل لا ينهض بالأمة من عثارها ولا ينقذها من فوضاها.

إن الأسرة تغرس فيه روح الاجتماع، والمدرسة تبني فيه صرح العقل، والمسجد يذكي فيه إشراق النفس وسمو الخلق، ثم يأتي من بعد ذلك إصلاح المجتمع إصلاحاً شاملاً لا يقوى جانب منه عل حساب جانب آخر.

والدعوة الإسلامية تلتقي مع كل الدعوات في مطالبها الإصلاحية السياسية والاجتماعية، فهي تهدف إلى إصلاح الأوضاع الاجتماعية إصلاحاً جذرياً عميقاً، يقضي على كل مظاهر الفقر والفوضى والظلم والضعف والجهل، وتهدف إلى إصلاح الأوضاع السياسية في الداخل والخارج إصلاحاً قوياً جريئاً يقضي على كل آثار الخيانة والاستغلال والارتجال والتردد. إننا نهدف إلى إيجاد المجتمع القوي في داخله بالعلم والخلق والعدل والتعاون، وإلى إيجاد المجتمع القوي في خارجه بالسلاح والجرأة والاستعداد، ولا نقر بحال من الأحوال احتلالاً أجنبياً أو سيطرة أجنبية سواء في ميادين السياسة أو السلاح أو التربية أو الاقتصاد. نحن شعب عظيم غني بموارده وكفاءاته نملك كل مؤهلات السيادة على أرضنا، والاستقلال في شؤوننا، والاستفادة من ثرواتنا، وإنها رسالة إنسانية نحملها إلى المعذبين والمضطهدين والحائرين والمنحرفين والجاهلين في شتى أنحاء العالم. والأقدار قد حمّلتنا منذ شرفنا الله بالإسلام قيادة العالم إلى سبل الحق والخير والسلام.

إن رسالتنا وحدها هي الرسالة التي جمعت كل عناصر

الخير للشعوب، ووسائلها هي أصدق الوسائل وأقدرها على إيصال العالم إلى شاطىء الأمان والاستقرار والسعادة. ومنذ انتزعت من أيدينا القيادة تخبطت الإنسانية في طريقها فاستقامت أحياناً وضلت أحياناً وقويت في جوانب منها وضعفت في جوانب أخرى، وسبيل الإنسانية المستقيم ليس في رفاهية العيش وتقدم الاختراعات فحسب بل هي مع ذلك في استقامة ضمائر الناس وسموا أخلاقهم وحسن صلتهم بالله العلي العظيم.

إننا لا نحصر إصلاحنا في داخل أرضنا بل نريده عاماً للناس جميعاً وللشعوب قاطبة، ونحن لا نحصر همنا في إطعام الجائع أو كسوة العاري أو إيواء المشرد بل نريد مع ذلك تهذيب الخلق وإصلاح القلب ورد الروح الحائرة التائهة إلى خالقها العظيم... وبذلك ـ إن التقينا مع كل الدعوات في مطالبها الإصلاحية ـ نختلف معها في أفق الإصلاح وميدانه ووسائله.. إن رسالتنا أكرم الرسالات مقصداً وأهدافاً، ووسائلنا أنجح الوسائل وأقربها نجاحاً.



الفهرس

الموضوع | **الصفحة**

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

★ جهادنا في فلسطين

★ دعوة الإسلام واقعية لا خيال

الموضوع	الصفحة